جامعة زيان عاشور الجلفة

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم العلوم الاجتماعية

دور الثقافة في البناء الحضاري

عند مالك بن نبي

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في علم الاجتماع التربوي

إعداد الطالبتين:

. لكحل خديجة

. ميناري أحلام

إشراف الدكتور:

العابد ميهوب

لجنة المناقشة:

1. د. ميهوب العابد رئيسا
2. أ. اخذري مولود مقررا
3. أ. حيدش ساعد مناقشا

السنة الجامعية:2016/2015

تَشَكُّرَاتْ

{هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} قال تعالى :

بعد فراغنا من إنجاز هذا الموضوع المبسط .. نقف وقفة حمدٍ وشكرٍ

* لله عز وجل*

* كما نتقدم بجزيل الشكر للأستاذ المشرف (العابد ميهوب) الذي أشرف على هذا البحث و لم يبخل علينا بنصائحه و توجيهاته القيمة و انتقاداته الموضوعية طوال فترة البحث .

* كما نتوجه بالشكر إلى كل من ساعدنا في انجاز هذا البحث من قريب أو من بعيد.

* و إلى كافة أساتذة و طلبة قسم علم الاجتماع بجامعة الجلفة .

فشكرا لكل هؤلاء ،و جزاهم الله عنا خير جزاء

وحسن الثناء

* خديجة ، أحلام *

الإهداء

* إلى من عشت في حضنها أياما و ليالي.. من كانت أروع إنسانة ، فإليك نبضا دائما في قلبي...**جدتي الحبيبة**

* إلى من تقف كلمات الحب خاشعة و عبارات الشكر أمامه؛ إلى الذي تعلمت على يديه الصبر و الكفاح...النهر الصافي، مثلي الأعلى...العزيز **أبي**

* إلى من سقتني الحليب و الحنان ، التي لم و لن تفارق ذاكرتي يوما.. الغالية **أمي**

* إلى ركائز وجودي أغلى ما أهدى إلي والدي "**إخوتي** "

* إلى كل أعمامي و عماتي وأولادهم و إلى كل من يحمل لقب " **مينارى**"

* إلى كل أخوالي و خالاتي و أولادهم و كل من يحمل لقب "**قيرع**"

* كما أن الشمس تدفئ الحياة فالصداقة تدفئ في طمأنينة

القلب إلى كل صديقاتي

الإهداء

الى روح ابي

الى أمي لغالية

الى اهلي وعشيرتي

إلى اساتذتي

إلى كل زملائي وزميلاتي

إلى الشموع التى تحترق لتضيء للاخرين

على كل من علمني حرف

أهدي هذا العمل المتواضع راجية من المولى عز وجل أن يجد القبول والنجاح

خديجة

ملخص الدراسة :

إن من أولويات واجبنا أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي ولذلك يجب أن نحددها عاملا تاريخيا لكي نفهمها ، ثم نظاما تربويا لنشرها بين طبقات المجتمع ، لان الثقافة لا تستطيع أن تكون أسلوب الحياة في مجتمع معين إلا إذا اشتملت على عنصر معين يجعل كل فرد مرتبط بهذا الأسلوب بتعبير مالك بن نبي .

فمشكل البناء الحضاري موجود في كل زمان ، وهي الجزء الذي تنبثق وتنتظم في مختلف القضايا الإنسانية ، بل أنها المدخل الطبيعي والأساسي لإعادة الحيوية قمنا بها لكي نثري موضوعا هاما نحاول من خلاله العمل على بعث نهضة جديدة متخذين في الثقافة جوهرا لدراسة الواقع الحضاري معتبرين إياها المحرك الرئيسي لبناء الحضارة وكان تساؤل الدراسة هو ما هو دور الثقافة في بناء الحضارة من منظور مالك بن نبي ؟

ونتج منه التساؤلات الفرعية التالية :

- كيف حلل مالك بن نبي الحضارة ؟
- ما هي وظيفة التوجيه الثقافي في بناء الحضارة ؟
- ما هي ميكانيزمات تفعيل الثقافة في البناء الحضاري ؟

واعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الاستنباطي (استدلالي)وذلك لمناسبته لموضوع الدراسة.

وخلصنا في النهاية إلى مجموعة من النتائج أهمها :

- مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية ، ولا يمكن لشعب أن يفهم او يحل مشكلته ما لم يرتقي بفكرته إلى الأحداث الإنسانية ، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها .
- الثقافة بما تتضمنه من فكرة دينية نظمت الملحمة الإنسانية في جميع أدوارها من لدن ادم ، لا يسوغ أن تعد علما يتعلمه الإنسان ، بل هي محيط يحيط به ، يتحرك داخله

، يغذي الحضارة في أحشائه ، فهي الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر ، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته ، تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه ، بما في ذلك الحداد والفنان والراعي والعالم والإمام وهكذا يتركب التاريخ .

- إن توجيه العناصر الثقافية باستخدام العقيدة الإسلامية لتكييفها مع الواقع الاجتماعي الراهن ، يؤدي إلى حل مشكلات الثقافة وبالتالي تحقيق النهوض الحضاري :

- فتوجيه الأخلاق يعالج تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية ويمتن تماسكها ويزيد قوتها ، لان حسن الأخلاق ينتج تفاعلا ايجابيا بين الأفراد كما يغذي نفوسهم بالفعالية التي تحقق الحركية الفردية والاجتماعية ، وبالتالي فك الركود والجمود الذي عانت منه الحضارة الإسلامية لعقود من الزمن .

- وتوجيه الذوق الجمالي يحقق للمجتمع الحس الجمالي ، بتجميل وتوجيه سلوكات الأفراد بما يخدم المجتمع ، كما انه مبدا تربطه علاقة تكاملية مع المبدأ الأخلاقي .

- وتوجيه المنطق العملي ينتج مجتمعا متكافلا يستغل جهوده وطاقاته ووقته وترابه بأحسن طريقة تمكنه من الاستفادة مما يملك إلى أقصى الحدود .

- أما التوجيه الصناعي فيوفر للمجتمع والفرد طرائق فنية لإنجاح مهام تتعلق بحياة المجتمع ، فهي تحقق له الاكتفاء الذاتي واستخدام طاقته المتاحة ، بطريقة علمية منهجية ، تحقق الدرجة القصوى من الإتقان المهني والمهارة الفنية .

Résume de l'étude:

L'une de propriétés est de notre devoir de rendre la culture, nous devons le niveau réel doit donc être identifié historiquement un facteur afin de le comprendre, le système éducatif doit être déployé entre les couches de la société, parce que la culture ne peut pas être le style de vie d'être dans une communauté donnée uniquement si inclus sur un élément particulier rend tout le monde associé a ce style mots Malik Ben Nabi.

Structure sociale culturel situé en tout temps , ce qui est la partie qui émergent et sont organisées en diverses questions humanitaires , mais il est l'entrée naturelle et fondamentale pour revitaliser notre but d'enrichir un sujet important que nous essayons par le travail pour insuffler une nouvelle renaissance a pris la culture ancienne face a étudier la réalité de la civilisation , les considérant le moteur principal pour construire une civilisation et était douteuse étude et le rôle de la culture dans la construction d'une civilisation de la perspective Mali Ben Nabi ?

Il en est résulté des sous-questions suivantes :

-comment analyser Malik Ben Nabi civilisation ?

-Quels sont les mécanismes d'activation de la culture dans la construction culturelle ?

-quelle est la fonction de l'orientation culturelle dans la construction d'une civilisation ?

Et nous avons adopté dans cette étude sur l'approche déductive pour la pertinence du sujet de l'étude.

Nous avons conclu a la fin d'une série de résultats, y compris :

*le problème de tout le peuple est essentiellement un problème culturel , et ne peut pas pour les gens a comprendre ou a résoudre le problème , sauf si vous vivez a son idée des événements humains , et n'a pas approfondir la compréhension des facteurs qui construisent des civilisations ..

*la culture comme contenu dans l'idée religieuse de l'humanitaire épique organisée dans tous les rôles d'Adam, ne justifie pas la note plus savant , mais un périmètre entoure , se déplace a l'intérieur, nourrit la civilisation dans son intestin , il est le milieu dan lequel il est composé de toutes les propretés de la communauté civilisée , et est formé dans le quel chaque partie des principaux points , en fonction de a très supérieure peinte par la communauté elle-même , y compris de deuil et l'artiste et parrainer et le monde vers l'avant et consiste donc a l'histoire .

*les éléments culturels directs a l'aide delà foi islamique a être adaptées a la réalité sociale actuelle, conduisent a une solution des problèmes de culture et de réaliser ainsi le progrès de la civilisation :

- les adresses d'éthique Tantamount rupture réseau de relations sociales et meurent cohésion et augmente sa force, par ce que les bonnes manières produit une interaction positive entre les individus les nourrit également efficaces qui permettent d'atteindre la mobilité individuelle et sociale, le décodage ainsi la récession et la stagnation subie par la civilisation islamique depuis des décennies.

- et guider le gout esthétise de la communauté atteint le sens de l'esthétique, l'embellissement et de guider les comportements des individus pour servir la communauté, il est aussi le principe le lier complémentarité avec le principe moral.

-Et diriger la logique métier produit la société interdépendance exploite ses efforts et ses énergies, le temps et le sol la meilleure façon pour lui tirer parti de ce qui a à l'extrême.

-le guidage industriel fournit une autonomie communautaire et les modalités techniques individuelles pour le succès des taches liées a la vie de la société, ils ont réalisé et l'utilisation de la capacité disponible, dans une méthodologie de manière scientifique, vérifier la classe maximum de fabrication professionnelle et la compétence technique

فهرس

فهرس المحتويـــــــات

العنوان الصفحة

تشكرات .....

الإهداء .....

ملخص الدراسة .....

فهرس المحتويات .....

مقدمة ..... أ- ب

الفصل الأول :الإطار المنهجي للدراسة

1-الإشكالية 06

2-أسباب اختيار الموضوع 07

3-أهمية الدراسة 08

4-أهداف الدراسة 08

5-تحديد المفاهيم 09

6-المنهج المتبع 19

7-الدراسات السابقة 19

الفصل الثاني: مالك بن نبي سيرة وفكر

تمهيـــد 32

1-مراحل نشأته وحياته 33

2-العوامل التي أثرت في شخصيته 38

3-أعماله وثرواته الفكرية 41

الفصل الثالث : الحضارة من منظور مالك بن نبي

تمهيـــــد 46

1-مفهوم الحضارة 47

2-مراحل الدورة الحضارية 58

3-العناصر المكونة للحضارة 65

4-العوالم الثلاث للحضارة 70

خلاصـــة 78

الفصل الرابع : مبادئ التوجيه الثقافي في بناء الحضارة

تمهيـــد 82

1- التوجيه الأخلاقي 83

2-التوجيه الجمالي 98

3-المنطق العملي 102

4-التوجيه الصناعي(الفني) 108

خلاصـــة 110

الفصل الخامس : فعالية الثقافة في بناء الحضارة

تمهيـــد 114

1-مفهوم الثقافة 115

2- تشكيل البنية الثقافية على مستوى الفرد 127

3- تشكيل البنية الثقافية على مستوى المجتمع 133

4- تشكيل البنية الثقافية على مستوى الثقافة 140

خلاصـــة 149

الخاتمة والنتائج 151

قائمة المراجع 155

مقدمة

مقدمة :

قضية البناء الحضاري قضية كبرى موجودة في كل عصر، وهي الجزء الذي تنبثق وتنتظم فيه مختلف القضايا الإنسانية والقومية، بل إنها المدخل الطبيعي والأساسي لإعادة الحيوية الحضارية للأمة، فالتفكير الحضاري يجب أن يكون هما بشريا مشتركا يدخل في أولويات كل فرد وكل مجتمع وكل أمة تريد أن ترتقي إلى النهوض الحضاري، وهذا ما شغل اهتمام الباحثين والمفكرين فمنهم من يرى في الإصلاح السياسي وسيلة، والبعض الآخر في إصلاح العقيدة، غير أن ما ذهب إليه مالك بن نبي في تحليلاته وتفسيراته لفكرة الإصلاح والبناء الحضاري لا تكون إلا بفحص الآراء والأفكار والمعتقدات التي لها دورا هام في حل المشاكل الاجتماعية للمجتمع، والمشكلة التي أرقته بصورة خاصة هي مشكلة الحضارة الإسلامية فهو يرى أن الأمراض التي تعاني منها الأمة الإسلامية يعود جوهرها إلى خلل في ثقافة الإنسان واضطراب في منظومته الفكرية ، ولهذا ذهب إلى القول بأن عملية الإصلاح والتجديد إنما تتمحور حول بناء العالم الثقافي للإنسان وذلك لبناء حضارة ، و اتخذ من الثقافة جوهر دراسة الواقع الحضاري معتبرا إياها المحرك الرئيسي للبناء الحضاري ، ودورها في بلوغ التقدم وتحقيق النهضة ، فالبعد الثقافي هو مركز الثقل في العملية التطورية الحقيقية.

ودراستنا الموسومة بعنوان دور الثقافة في بناء الحضارة من منظور مالك بن نبي نسعى من خلالها إلى توضيح آراء وأفكار مالك بن نبي حول أهمية الثقافة وفق خطة منهجية اشتملت على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة .

المقدمة كانت عبارة عن تقديم وإثارة للموضوع

أما الفصل الأول يتضمن : الإطار المنهجي للدراسة ، الذي كان بمثابة فصل تمهيدي أشرنا فيه إلى مشكلة الدراسة والسؤال العام تتفرع عنه تساؤلات فرعية ، كما أشرنا إلى أسباب اختيار الموضوع والأهمية والأهداف ، وحددنا المفاهيم الأساسية للدراسة ، والدراسات السابقة

الفصل الثاني: تطرقنا إلى سيرة وفكر مالك بن نبي قسمناه إلى ثلاث محاور تمثلت في مراحل نشأته وحياته ، والعوامل التي أثرت في شخصيته ، وأخيرا أعماله وثرواته الفكرية

أما الفصل الثالث: تناولنا فيه الحضارة من منظور مالك بن نبي وقسمناه إلى أربعة محاور،وهي مفهوم الحضارة ، مراحل الدورة الحضارية والعناصر المكونة لها ، والعوالم الثلاث للحضارة .

وفي الفصل الرابع تناولنا فيه مبادئ التوجيه الثقافي في بناء الحضارة وتمثل في أربعة محاور التوجيه الأخلاقي والتوجيه الجمالي ، المنطق العملي وأخيرا التوجيه الصناعي (الفني)

أما الفصل الخامس تناولنا فاعلية الثقافة في البناء الحضاري وقسمناه إلى أربعة محاور جاء فيه مفهوم الثقافة ثم تشكيل البنية الثقافية على مستوى الفرد تكلمنا على الأخلاق والتكيف والحرية ، تشكيل البنية الثقافية على مستوى المجتمع وهو نوعين المجتمع العام والمجتمع النوعي ، وأخيرا تشكيل البنية الثقافية على مستوى الثقافة تضمن السمات المرضية للمجتمع الإسلامي

وأخيرا الخاتمة وبعض التوصيات .

الفصل الأول

الإطار المنهجي للدراسة

الفصل الأول

1 . الإشكالية

2 . أسباب إختيار الموضوع

3 . أهمية الموضوع

4 . أهداف الموضوع

5 . تحديد المفاهيم

6 . المنهج المتبع

7 . الدراسات السابقة

1- الإشكالية :

تتطور المجتمعات في مسيرتها التاريخية بفعل وعي الإنسان بأهدافه الحقيقية في الحياة من خلال سنن القوة والنصر والتمكين التاريخي في الأرض ، وبالنظر إلى الحضارات من منطلق تاريخي وفق منهج تحليلي نقدي تتضح لنا أهمية الثقافة ذلك الكل المتكامل من قيم ومعايير ومعتقدات وأنماط من السلوكات في النهوض بهذه الأمة والقضاء على المشكلات الاجتماعية الدخيلة ولا يتأتى ذلك إلا بتغير اجتماعي لإصلاح الخلل داخل البناء الاجتماعي، وبالنسبة لحال مجتمعات العالم الإسلامي اليوم ، نلاحظ أنها تواجه أكثر من مشكلة داخلية وخارجية تدفع بالواقع الذي تتحرك فيه إلى بعض الاختلال و الاهتزاز في حركة إنسانها في ذاته ، في تصوراته وآفاقه وعلاقاته بالحياة وبالآخرين .

كما أنها تواجه أيضا في الأوضاع الخارجية من حولها التحديات الكبرى على صعيد الثقافة والاجتماع والسياسة والاقتصاد ، ما يجعلها والحال هذه ، في بعض عناوين الواقع وعناصر الحركة وتنوع المكان ، تتراجع عن الإسلام الحضاري الذي يرفض التخلف والسكون والخرافة والتحرك في الهوامش الجزئية ولاسيما هوامش التاريخ التي لا علاقة لها بعمق العقيدة بأصول الشريعة وبأصول الأفكار التي لها كثافة الواقع ووزنه ، فضلا عن العيش في الماضي والاستغراق في خلافته بالدرجة التي تجعلها تغفل ، بسبب ذلك عن تحديات الحاضر التي تواجهها وتبعدها كأمة إسلامية عن موقع الوحدة وحركة الفعل الحضاري في الواقع الإنساني العالمي.

إن تنظيم المجتمع وحركته ، بل فوضاه وخموده وركوده ، كل هذه الأمور ذات علاقة وظيفية بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع ، فإذا ما تغير هذا النظام بطريقة أو بأخرى فان جميع الخصائص الاجتماعية ، تعتدل في الاتجاه نفسه ، وهذا ما دعا المفكر الإسلامي مالك بن نبي بتشخيص داء الأمة ، وذلك من خلال كتاباته القيمة التي ركز

فيها على مركزية الإنسان في التغيير الاجتماعي والنهوض من جديد وقد تمثلت هذه الكتابات في سلسلة سماها مشكلات الحضارة ،ومن خلال عملنا هذا ، نسعى إلى تبيان المعالم الثقافية في هذا الفكر التنويري البنابي وذلك تسليط الضوء على دور الثقافة في البناء الحضاري ، فالثقافة تنشئ الحضارة وتمنحها هويتها وذاتيتها الإنسانية الخاصة، فتغنيها وتجددها ، وكل يؤثر بالأخر سلبا أو إيجابا ، ومنه يتجلى لنا تساؤل هذه الدراسة كالتالي:

ـ ما هو دور الثقافة في بناء الحضارة من منظور مالك بن نبي ؟

ويتفرع منه التساؤلات الفرعية التالية :

- كيف حلل مالك بن نبي الحضارة ؟
- ما هي وظيفة التوجيه الثقافي في بناء الحضارة ؟
- ما هي ميكانيزمات تفعيل الثقافة في البناء الحضاري ؟

2- أسباب اختيار الموضوع :

2-1 : أسباب ذاتية :

- الاعتزاز بكل ما هو جزائري من فكر أصيل وحضاري ، وهذا ما جعلنا نتطلع الى الكشف عن الأفكار الهادفة لفيلسوف الحضارة مالك بن نبي .
- المحاضرات التي قدمها لنا أساتذتنا حول فكر مالك بن نبي والنقاش مع الزملاء ، خلق لدينا فضولا علميا جعلنا نتناول هذه الدراسة .
- الأوضاع الراهنة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية والتي تنبأ بها في كتاباته مما جعلنا نحاول أن ندرس أفكاره التي كانت صالحة لكل زمان ومكان .
- إبراز الفكر البنابي وتقديرنا واحترامنا لهذا المفكر من خلال إسهاماته الفكرية .
- تحفيز الطلبة الجامعيين على التطلع لهذه الدراسات والاستفادة منها علميا وعمليا .

2-2 أسباب موضوعية :

- توضيح أفكار مالك بن نبي في طرحه للبناء الحضاري وربطه بمشكلة الثقافة .
- ضرورة الدراسة في هذا الموضوع الجدير بالاهتمام ليكون موضوع بحثنا الذي يكاد يخلو من مكتباتنا .
- تناول دور الثقافة كنسق ضروري لعملية البناء الحضاري .

3- أهمية الدراسة :

مما يعزز أهمية هذا البحث مشروع مالك بن نبي النهضوي مشروع عقلاني ومنطقي يصلح درساً للشباب يتعلمون منه مسالك النهضة الحضارية ودروبها ، باتخاذه من فكرة الحضارة بؤرة تجمع أفكاره الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية ، بحيث أصبح نسقا فكريا وهدفا عمليا يتبلور في خطوطه العريضة شخص من خلاله داء الأمة بمنهجية علمية ، واتخذ من الثقافة جوهر دراسة الواقع الحضاري ، معتبرا إياها المحرك الأساسي لقيام أي حضارة .

4- أهداف الدراسة :

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية :

- التعريف بالمفكر والفيلسوف مالك بن نبي من خلال التطرق لسيرته وفكره .
- تسليط الضوء على مشروع ابن نبي النهضوي من اجل الاستفادة منه في واقعنا.
- تصفية ذهن أبنائنا من النظرة الدونية لمفكرينا .

5- تحديد المفاهيم :

5-1 :الحضارة :

5-1-1 :تعريف الحضارة لغويا :

في قاموس المنبع الموسع : "حضر يحضر حضارة أقام في الحضر ، تتغير عقلية الإنسان بتغير سكينه سواء حضر أو أقام في البادية .

الحضارة :الإقامة في الحضر بعيدا عن البادية " [1]

و في القاموس المحيط (الحضارة) ضد فعل (غاب) ، والحضارة (ويفتح) خلاف البادية .[2]

وفي تاج العروس (الحاضرة والحضرة والحضر هي المدن والقرى والريف ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار) [3]

5-1-2: تعريف ابن خلدون:

" الحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه ، من المطابخ و الملابس والمباني والفرش ، وسائر عوائده وأحواله ، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه " [4]

---

[1] – عصام حداد ، قاموس المنبع الموسع ، ط1 ، دار صبح ، بيروت لبنان ، 2011م ، ص 527.

[2] – لمجد الدين الفيروز أبادي ، قاموس المحيط ، ج 2، مكتب التراث في مؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2005 ،ص 10.

[3] – العابد ميهوب ، الفكر التربوي عند مالك بن نبي ، أطروحة دكتوراه ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية ، جامعة بسكرة ،2014 ،ص

[4] – عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ط 4 ،دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ،ص 172.

5-1-3 : تعريف سيد قطب:

مفهوم الحضارة عنده يقوم على العقيدة الإسلامية التي تعمل على التحرر الحقيقي الكامل للإنسان ، وتوجد الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع ، وذلك عن طريق تحقيق الحاكمية العليا في المجتمع لله وحده .

وتحقيق العبودية لله وحده ، والتجمع على أساس هذه العقيدة ، واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة ، وسيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان ، لا حيوانيته وتقيم الخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه ، ويمكن أن تتخذ الحضارة أشكالا متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي ، ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة لأنها هي مقومات الحضارة

5-1-4 : تعريف الطيب برغوث:

هي المستويات الراقية من الإشباع المتوازن للحاجات الإنسانية، المعرفية والروحية أو الاجتماعية. التي تدفع بالحياة البشرية نحو المزيد من الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني ، وتتيح للإنسان الاستمتاع الأمثل بخلافته في الأرض ، وتهيئة شروط تأمين هذا الاستمتاع في بقية مراحل " دورته الوجودية " بعد ذلك ، حينما تؤول به صيرورة الحياة إلى عوالم المرحلة البرزخية ، ومنها إلى عوالم مرحلة القيامة والحشر والحساب ، وانتهاء بمرحلة الخلود الفردوسي أو الجحيمي .[1]

5-1- 5 : تعريف كلايد كلاكهون :

أن الحضارة تعني النتاج التاريخي لتنظيم المعيشة ،وذلك من خلال مشاركة الجماعة .[2]

[1] – الطيب برغوث ، حركة تجديد الأمة على خط الاجتماعية ، دار قرطبة للنشر والتوزيع ، ط1، المحمدية ، الجزائر ، 2004 ،ص 30.

[2] – العابد ميهوب ،الفكر التربوي عند مالك بن نبي ، مرجع سابق، ص 15.

5-1-6: تعريف الحضارة عند مالك بن نبي :

يرى مالك بن نبي أن الحضارة هي :" هي مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين ، ان يقدم لكل فرد من أفراده ، في كل طور من أطوار وجوده ، منذ الطفولة إلى الشيخوخة ، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطواره [1]".

" وهي ذات جانبين : الجانب الذي يتضمن شروطها المعنوية ، في صورة إرادة تحرك المجتمع نحو تحديد مهماته الاجتماعية والاضطلاع بها ، والجانب الذي يتضمن شروطها المادية ، في صورة إمكان ، أي أنه يضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بمهماته ، أي الوظيفة الحضارية"[2]

5-2 : الثقافة :

5-2-1 : تعريف الثقافة لغويا :

جذر الكلمة في اللغة العربية (ثقف) الرجل من باب ظرف صار حاذقا خفيفا فهو ثقف مثل ضخم ، و (الثقاف) ما تسوي به الرماح و (تثقيفها) تسويتها "[3]

ففي القرآن الكريم : { وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ } صورة البقرة ، الآية 191 .

معجم ويبستر : تتمثل الثقافة في معجم "ويبستر " فيما يلي :

أولا : فن الزراعة أو العمل عملية الزراعة

ثانيا : عملية التنمية الناتجة عن التعليم والنظام والخبرة الاجتماعية .

ثالثا : استنارة التذوق والامتياز اللازمان للممارسة الفكرية والجمالية المتمثلة في :

---

[1] – مالك بن نبي ، أفاق جزائرية ، مكتبة عمار ، 1971م، ص 38 .

[2] – مالك بن نبي ، المسلم في عالم الاقتصاد ، دار الفكر ، دمشق ، 1979م ،ص

[3] – محمد بن بكر بن عبد القادر الرازي ، مختار الصحاح ، دار صادر ، بيروت ، ص 63 .

المضمون الفكري والفني للمدنية .

تنقية السلوك والتذوق الفكري .

التعرف على الفنون الجميلة والإنسانيات والمجالات الفسيحة للعلم وتذوقها باعتبارها نوعا من المهارة أو المعرفة الإدارية أو التقنية أو المهنية .

. الإطار الجمالي لسوك البشري ومنتجاته المتمثلة في الفكر والكلام والعمل المعتمد على قدرة الإنسان على التعليم ، ونقل المعرفة إلى الأجيال المتتالية من خلال استعمال الأدوات واللغو ونظم التفكير المجرد .[1]

5-2-2 : تعريف إدوارد تايلور :

وقد كان العالم الأنثروبولوجي البريطاني ادوارد بارنات تايلور صاحب أول تعريف إثنولوجي للثقافة معتبرا إياها : " ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون و العادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هم عضو في المجتمع" . [2]

5-2-3 : تعريف جون ديوي :

الثقافة هي حصيلة التفاعل بين الإنسان والبيئة .[3]

5-2-4 : كلايد كلوكهون :

بأنها مجموعة طرائق الحياة لدى شعب معين ، أي الميراث الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد من مجموعته التي يعيش فيها ، أو الجزء الذي خلقه الإنسان في محيطه وهي التي

[1] – العابد ميهوب : مرجع سابق ، ص 18 .

[2] – دنيس كوش ، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، منير السعيداني ، ط1 مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 2007 ،ص 37 .

[3] – العابد ميهوب : مرجع سابق ، ص 17

تحدد الأساليب الحياتية ، أو هي طريقة في التفكير والشعور والمعتقدات ، إنها معلومات الجماعة البشرية مخزونة في ذاكرة أفرادها في الكتب أو المواد والأدوات .

5-2-5 : تعريف الثقافة عند مالك بن نبي :

الثقافة تتعرف بصورة عملية كما يقول على أنها : " مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته ، بوصفها رأس مال أوليا في الوسط الذي ولد فيه ، والثقافة على هذا هي : المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته " .

هذا التعريف طور مفهوم الثقافة بإبراز وظيفتها وفاعليتها وربطها بالتاريخ والتربية :

أولا : معنى الثقافة في التاريخ

حسب رأي مالك بن نبي فلا نستطيع أن يكون تاريخ بدون ثقافة ، فالمجتمع الذي فقد ثقافته ، يكون قد فقد حتما تاريخه فالثقافة هي " الوسط الذي تتكون فيه خصائص المجتمع المتحضر (المجتمع التاريخي) ، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته ، تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه"[1] .

ثانيا : معنى الثقافة في التربية : قبل أن نحدد معنى التربوي للثقافة كان لازما علينا أن نحدد هدفها وما يتطلبه من وسائل تطبيق . فالثقافة هي دستور تتطلبه الحياة العامة ، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي وليست علما خاصا لطبقة من الشعب دون أخرى . وخاصة إذا كان الحاجز الذي يخفض بعض بعض أفراده من السقوط من فوق الجسر إلى الهاوية "[2]

[1] – مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، ط4 ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 2000م ، ص77 .

[2] – العابد ميهوب ، مرجع سابق ، ص 20.

5-3 : الأخلاق :

5-3-1 : تعريف الأخلاق لغويا :

جاء في لسان العرب أن" الأخلاق جمع خلق والخلق بضم اللام وسكونها هو الطبع أو السجية أو الصفة " واشتقاق خليق ، وما أخلق من الخلاقة وهي التمرين ، من ذلك تقول للذي ألف شيئا صار ذلك له خلقا أي مرن عليه ، ومن ذلك الخلق الحسن "[1]

" وكلمة أخلاق جمع خلق بضمتين كعنق ، أو بضم فسكون كصلب وأصلاب ، ولا تكسر على غير ذلك وتطلق كلمة خلق في لغة العرب على الطبع والسجية والعادة والمروءة ، والدين قال : سالم بن واصبة :

يا أيها المتحلي غير شيمته ... إن التخلق يأتي دونه الخلق "[2] .

وقد ورد لفظ خلق في القرآن الكريم مرتين ،الأولى في قوله تعالى : { وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ } سورة القلم 04.

5-3-2 : تعريف ابن مسكويه :

عرف الخلق" بأنه حالة للنفس ، داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية وهذه الحال تنقسم إلى قسمين ، منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب ، ويهيج من اقل سبب بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدؤه الفكر ، ثم يستمر عليه أولا فأول ، حتى يصير ملك وخلقا به "[3]

---

[1] – ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، المجلد العشر ، ص86 .

[2] – الشيباني عمر تومي ، مقدمة الفلسفة الإسلامية ،الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، س 1995 ،ص 211

[3] – ابن مسكويه ، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، ط2، لبنان مكتبة الحياة ، ص51

5-3-3 : تعريف أبو حامد الغزالي :

عرف الأخلاق بأنها: "عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ، ومن غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا ، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا ن فهناك أربع أمور: احدها فعل الجميل والقبيح ، والثاني : القدرة عليهما ، والثالث : المعرفة بهما ، والرابع : هيئة للنفس بها تميل إلى احد الجانبين وتسير عليها احد الأمرين إما الحسن وإما القبيح "[1]

تعريف اشفيتسر: ينظر اشفيتسر إلى الأخلاق نظرة وظيفية فهو يعرفها على نحو يوحي بان :" ما هو أخلاقي هو أعلى مراتب الحق ، وأعلى مراتب العمل "[2] ومنه فان وظيفة الأخلاق برأيه هي التي يرجع لها الفضل في تكوين علاقات اجتماعية جيدة ، على اختلافها في المجتمع البشري فيقول : " وتحت تأثير المعتقدات الأخلاقية وحدها تكونت مختلف العلاقات في المجتمع البشري ، عل نحو يسمح للأفراد والشعوب أن تنمو وتتطور بطريقة مثالية " ويعلل ذلك بقوله " ذلك أن الإنسان لن تكون له قيمة حقيقية ، وبوصفه شخصية إنسانية الا من خلال كفاحه ليكون ذا خلق وخصال حسنة "[3] .

وبهذا المعنى تكون الأخلاق عند اشفيتسر ليست مسالة شكلية ، بل هي قضية أساسية تحيل الأخلاق إلى قيم أهدافها واضحة ، ووظيفتها محددة . ولذلك هو يرى " أن الأخلاق تذهب الى المدى الذي تذهب إليه الإنسانية ، والإنسانية معناها توفير الاعتبار لوجود

[1] – محمد ابي حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، بيروت ، دار الجيل ، مجلد 3 ، ص177

[2] – اشفيتسر البيرت ، ص 105

[3] – نفس المرجع ، ص4

أفراد الإنسانية وسعادتهم، حيث تنتهي الإنسانية تبدأ الأخلاق الزائفة "[1] وتكون الأخلاق بذلك مسؤولية لا حد لها تجاه كل ما هو حي .

5-3-4 : تعريف لوبون :

يقول "ونحن إذا بحثنا في الأسباب التي أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم ، وجدنا أن العامل الأساسي في سقوطها هو تغير مزاجها النفسي ، تغيرا نشأ عنه انحطاط أخلاقها ، ولست أرى أمة واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها "[2]

5-3-5 : مفهوم الأخلاق عند مالك بن نبي :

تناول مالك بن نبي فكرة الأخلاق في إطار الدين أو ما يسميه "بالفكرة الدينية " ، ودورها في الحضارة ، فهو ينظر إلى الأخلاق لا من الناحية الفكرية النظرية الفلسفية ،بقدر ما ينظر إليها من الناحية الاجتماعية ، وليس الأمر هنا أن شرح مبادئ خلقية ، بل نحدد قوة التماسك الضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية ، هذه القوة مرتبطة في أصلها بغريزة الحياة ، في جماعة ، وعند الفرد ارتباطا يتيح له تكوين القبيلة والعشيرة والمدينة الأمة " [3]ولهذا عرفت الأخلاق عند مالك بن نبي بأنها : " محور النمو الاجتماعي والثقافي والاقتصادي " فهي المقاييس والقواعد التي تنظم المجتمع بشكل يسمح له بصناعة تاريخه ، ولما يتحدث عن تنظيم المجتمع كهدف رئيسي للأخلاق نجده يقول : " فإن تنظيمه يجري طبقا لمقاييس وقواعد ، وهي في حقيقتها قيم خلقية لم ينتجها ، ولكنها تنظم نشاطه في سبيل غايته ، وكلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه " ويعني القانون الخلقي تلك : " الصلة التي يجب أن توجد بين الإنسان ومثله الأعلى " ، ويضيف مالك

---

[1] – نفس المرجع ، ص 398

[2] – العابد ميهوب ، مرجع سابق ،ص 338 .

[3] – مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، مرجع سابق ، ص 79

بن نبي معرفا الروح الخلقية بأنها : " منحة من السماء تأتينا مع نزول الأديان ، عندما تولد الحضارات ، ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض " كما ينظر مالك للأخلاق من زاوية أخرى على أنها تدخل في تحديد معنى الثقافة وأنها عنصر هام من عناصرها ، بل وشرط من شروطها حيث يقول في هذا " فأساس كل ثقافة هو بالضرورة (تركيب) (وتأليف) لعالم الأشخاص وهو تأليف يحدث طبقا لمنهج تربوي يأخذ صورة فلسفية أخلاقية ، وإذن فالأخلاق أو الفلسفة الأخلاقية هي أولى المقومات في الخطة التربوية لأي ثقافة " و "الأخلاقي التركيب التربوي لكل هذه العناصر . ولذلك كانت فصلا جوهريا من فصول الثقافة ، نتصوره لا على أنه تاريخ ، بل على أنه مشروع تاريخ "

5-4 :التربية :

5-4-1 : تعريف التربية لغة :

بالعودة الى المعاجم نجد أن كلمة تربية من الجذر ربا يربو تحمل المعاني التالية

1) الزيادة والنمو :

ربا الشيء يربو رباواً ورباءً : زاد ونما

1) و أربيته نميته ، وفي التنزيل : { وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ } سورة البقرة ،آية 276 .

2) النشأة : ربيب رباءً ورباياً : نشأت .

ومن الجذر : ربّ : يَرُبُّ تحمل المعاني الآتية :

1)حفظ الشيء ورعايته : ربَّ ولده والصبي يَرُبُّه ربّاً بمعنى رباه. وفي الحديث : (لك نعمة تربها) : أي تحفظها وترعيها وتربيها كما يربي الرجل ولده

2)حسن القيام بالطفل ووليه حتى يدرك. رب ولده والصبي يربه رباً : رباه أي أحسن القيام ووليه حتى أدرك أي فارق الطفولية كان ابنه أم لم يكن[1]

5-4-2 : التربية الإسلامية هي :

" تنمية جميع جوانب الشخصية الإسلامية الفكرية والعاطفية والجسدية والاجتماعية ، وتنظيم سلوكها على أساس من مبادئ الإسلام وتعاليمه ، بغرض تحقيق أهداف الإسلام في شتى مجالات الحياة ".[2]

5-4-3 :تعريف التربية عند دوركايم :

هي العمل الذي تمارسه الأجيال الراشدة على الأجيال التي لم تنضج بعد ، من أجل الحياة الاجتماعية ، إن هدفها أن تثير لدى الطفل وتنمي عنده طائفة من الأحوال الجسدية والفكرية والخلقية ، التي يتطلبها منه المجتمع السياسي ، في جملة وتتطلبها البيئة الخاصة ، التي يعد لها بوجه خاص[3].

5-4-4 : تعريف التربية عند مالك بن نبي :

أولا : التربية عنده كمفهوم هي : "وسيلة فعالة لتغير الإنسان "

ثانيا : وبصياغة أخرى قدم التربية على أنها مشروع متكامل لتحضير (من الحضارة) الإنسان وتأهيله للمساهمة في بناء المجتمع التاريخي المتحضر .

ثالثا : التربية عند مالك بن نبي هي عملية منهجية هادفة : " أن نعلم كل فرد فن الحياة مع زملائه ، أعني : أن نعلمه كيف يتحضر ...)

---

[1] – سيما راتب عدنان أبو رموز ، تربية الطفل في الإسلام ، ماجستر دراسات إسلامية ، ص 12.11

[2] – صبحي طه رشيد ابراهيم ، التربية الإسلامية وأساليب تدريسها ،عمان ، دار الأرقم للكتب ، ط1 ، 1983 م ، ص9

[3] – العابد ميهوب ، مرجع سابق ، ص 12 .

في هذه الزاوية يعرف مالك بن نبي التربية :

أنها عملية تمثل العناصر الثقافية التي يمتصها الفرد من الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه ، لأن الثقافة ليست إلا المناخ النفسي والاجتماعي الذي ينمو فيه الفرد بل ويكبر من خلاله[1].

6- المنهج المتبع :

استخدمنا في دراستنا المنهج الاستنباطي (الاستدلالي) وذلك لمناسبته لطبيعة الدراسة.

7 -الدراسات السابقة :

7-1 :الدراسة الأولى :

مالك بن نبي ومشكلات الحضارة . دراسة تحليلية ونقدية . للدكتور : زكي الميلاد ، ط1، عن دار الفكر ، دمشق ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، 1998م ، من تقديم سعيد جودت ، دراسة تحليلية ونقدية ، وقد جاءت هذه الدراسة في خمس فصول وملاحق كالتالي :

الفصل الأول : أضواء على شخصية مالك بن نبي .

الفصل الثاني : نظرات حول فكر مالك بن نبي .

الفصل الثالث : مرتكزات النظرية الفكرية عند مالك بن نبي .

الفصل الرابع : مكونات القوة في فكر مالك بن نبي .

الفصل الخامس : نقد الفكر المنهجي لمالك بن نبي .

[1] – تونسي العقون ، الفكر التربوي عند مالك بن نبي وعلاقته بمشكلة التخلف في الجزائر ، مذكرة ماستر ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية ، جامعة زيان عاشور الجلفة ، 2015 ،ص 17 .

وملاحق تضمنت :

ـ مقاربات في الفكر والمنهج بين إقبال ومالك بن نبي .

ـ مراجعة ونقد في كتاب مالك بن نبي ومشكلات الحضارة .

ـ مؤلفات مالك بن نبي .

ـ بيبلوغرافيا الأعمال الفكرية عن مالك بن نبي .

7-2 : الدراسة الثانية :

محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي ، للدكتور الطيب برغوث ،وهو كتاب في طبعته الأولى ، صادر عن دار الراية للتنمية الفكرية ، دمشق ، سوريا سنة 2006م .وهو كتاب جاء ليقدم رؤية أخرى تتمحور حول نظرية الثقافة عند مالك بن نبي والتي تعتبر محور ولب نظريته في فلسفة التاريخ والحضارة ، باعتباره أن نجاح أية حركة نهوض حضاري ترتبط بطبيعة مشروعها الثقافي، وقد جات الدراسة كما يلي :

- في الطريق إلى عالم مالك بن نبي الفكري .

- انعكاسات غياب المراجعة والتقويم على سبير حركة التجديد الحضاري .

- مالك بن نبي وفقه المراجعة والنقد والتقويمي .

- مالك بن نبي ودراسة السننية الإسلامية .

- الآفاق الكبرى لإستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي .

- المداخل الكبرى لإستراتيجية البناء الحضاري .

- موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري .

- الدور المحوري للإسلام في حركة التغيير الحضاري .

- مقولات في الوعي الثقافي العالي .

يستخلص مالك بن نبي لفلسفة ومنهج التغيير الاجتماعي والحضاري . والملاحظ في تفكير مالك بن نبي بصفة عامة ، أنه يطرح موضوعاته ضمن إطار منظومي منهجي متكامل ، يرتقي بهذه الموضوعات إلى مستوى النظريات المتكاملة ، كما فعل في دراسته لموضوع الثقافة الذي ربطه بموضوع الحضارة فالثقافة هي قانون الحضارة المطرد فمن أراد أن يبني حضارة ، وأن يشارك بفعاليته في حركة التدافع والتداول الحضاري الإنساني ، وأن يقي نفسه من أخطار الغثائية الحضارية ، عليه أن يفهم قوانين الثقافة ، وأن يتحكم في استثمارها بفعالية . فالثقافة التي تصنع حضارة ، وتمنح المجتمع والأمة ، القوة والمكنة والنفوذ والأمن الحضاري ، والحضارة تغني الثقافة وتجددها وتدفع بها إلى آفاق السننية النمطية، فهو يؤكد على مدى عمق أصالة ما طرحه مالك بن نبي من رؤى أو نظريات متكاملة، سواء في القضية الحضارية عامة، أو في المسألة الثقافية خاصة، فقد كان أصيلا فيما طرح من أفكار وتصورات عميقة، جمعت بين معطيات ثوابت وأصول الهوية الثقافية والحضارية الذاتية للأمة من ناحية ، وبين القدرة على التحليل الموضوعي لواقع الأمة وتشخيص نواقصه، وتوصل إلى تمكن مالك بن نبي بثقافته الواسعة ، وبعمق صلته بذاتيته الثقافية والحضارية ، أن يكون رائدا للمدرسة الحضارية الإسلامية المعاصرة المستقلة ، التي تؤمن كما قال رحمه الله :" إن التاريخ لا يصنع بالاندفاع في دروب سبق السير فيها وإنما بفتح دروب جديدة " .

3-7 : الدراسة الثالثة :

الفكر التربوي عند مالك بن نبي من إعداد الدكتور: العابد ميهوب، أطروحة شهادة الدكتوراه في علم الإجتماع تخصص علم الاجتماع التربية، نوقشت سنة 2014، جامعة بسكرة .

استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج التحليلي الاستنباطي، وذلك لطبيعة الدراسة التحليلية ، وتتمحور تساؤلات الدراسة حول :

1: ما هي الظروف الشخصية التي عاشها والتي أثرت بفكره ؟

2 : ما طبيعة الفكر التربوي عنده ؟ وما الأبعاد التربوية لنظرية الحضارة ؟ وما القواعد والأسس والشروط والأبعاد التي تقوم عليها التربية الاجتماعية ؟

3 : ما دور وأهمية الأخلاق في بناء الحضارة ؟ وما العلاقة التي تربطهما ببعض ؟

4 : كيف تشكل المنظور التربوي من الزاوية التربوية عنده ؟ وما مظاهر وأسباب التخلف ؟ وما مقومات النهوض وركائز التنمية التربوية عند مالك بن نبي ؟ .

وقد جاءت الدراسة متضمنة ثمانية فصول موزعة كالتالي :

الفصل الأول : الإطار المنهجي للدراسة .

الفصل الثاني : مالك بن نبي وتكوينه الفكري .

الفصل الثالث : طبيعة الفكر عند بن نبي .

الفصل الرابع : البعد التربوي لنظرية الدورة الحضارية عند مالك بن نبي .

الفصل الخامس : التربية عند مالك بن نبي :المفهوم ، الأهداف ، الأبعاد .

الفصل السادس : التربية الاجتماعية ، المفهوم، الشروط ، القواعد ،المبادئ ،الأسس، الأبعاد

الفصل السابع : التربية وعلاقتها ببناء الدورة الحضارية .

الفصل الثامن : البعد التربوي للمشروع التنموي لمالك بن نبي .

ومن أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث :

ـ إرتباط الفكر التربوي بالبيئة الثقافية والاجتماعية والسياسية التي ساهمت في بلورة التوجه الفكري لهذا المشروع .

ـ شغف بن نبي في القراءة والمطالعة المستمرة لأمهات الكتب الغربية ، التي شكلت وعي جيل من الأوروبيين ، فكون مالك بن نبي نفسه تكوينا عصاميا ، ولم تكن هذه الميزة متوفرة في واقع الأجيال الحالية .

ـ استنتاجه لمجموعة من الأفكار التربوية ، والمضامين ذات العلاقة في مؤلفاته ، وما تتضمنه من قيم تربوية ذات أبعاد فكرية وسوسيولوجي .

ـ تعتبر مقاربة مالك بن نبي التنموية واحدة من أفضل المداخل التربوية ، التي عالجت التنمية من كل جوانبها وعملية تشخيص لواقع مختلف .

ـ الارتباط الوثيق بين التربية والحضارة ، فالتنمية كما يراها متطابقة مع فكرة الحضارة ، ذلك أن النمو حضارة والتخلف انحطاط .

ـ وجود علاقة وصلة قوية بين الأخلاق والحضارة، كان لابد من توظيف القيم والأخلاق في بناء الحضارة ، وباعتبارها عاملا جوهريا يساهم في بقاءها ونمائها وتطورها .

ـ تتشكل التربية الاجتماعية من مجموعة من المفاهيم والصيغ لإعادة البناء الاجتماعي .

7-4 : الدراسة الرابعة :

الفكر التربوي عند مالك بن نبي وعلاقته بمشكلة التخلف في الجزائر من إعداد الطالبين : محمد تناح ،تونسي العقون ، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في علم الاجتماع التربوي ، نوقشت سنة 2015 م ، جامعة زيان عاشور الجلفة .

استخدما الباحثان المنهج الوصفي وذلك لمناسبة طبيعة الدراسة ، وقد جاء تساؤل الدراسة كالتالي :

كيف عالجت أفكار مالك بن نبي التربوية مشكلة التخلف من خلال كتاب شروط النهضة ؟ ونتج عنه التساؤلات الفرعية التالية :

هل عالجت أفكار مالك بن نبي التربوية مشكلة التخلف من زاوية الواقع والتاريخ في كتاب شروط النهضة ؟

هل أفكار مالك بن نبي التربوية في كتاب شروط النهضة عالجت مشكلة التخلف في عنصر الإنسان ؟

هل عالجت أفكار مالك بن نبي التربوية في كتاب شروط النهضة مشكلة التخلف من خلال عنصر الاستعمار ؟

وكانت الفرضيات كالتالي :

ـ عالجت أفكار مالك بن نبي التربوية مشكلة التخلف في كتاب شروط النهضة .

ـ عالجت أفكار مالك بن نبي التربوية مشكلة التخلف من زاوية الواقع والتاريخ في كتاب شروط النهضة .

ـ أفكار مالك بن نبي التربوية عالجت مشكلة التخلف في عنصر الإنسان في كتاب شروط النهضة .

ـ عالجت أفكار مالك بن نبي التربوية في كتاب شروط النهضة مشكلة التخلف من خلال مشكلة الاستعمار .

وقد تكونت هذه المذكرة من بابين :

الباب الأول : الجانب النظري

الفصل الأول : الإطار المنهجي للدراسة

الفصل الثاني : مالك بن نبي نبذة حياة ومسار فكر 1905ـ 1973

الفصل الثالث : منظومة الأفكار والحضارة عند مالك بن نبي

الفصل الرابع : أسس الفكر التربوي عند مالك بن نبي .

الفصل الخامس : التخلف من منظور مالك بن نبي.

الباب الثاني : الجانب التطبيقي

الفصل الأول : الإجراءات المنهجية لدراسة كتاب شروط النهضة .

الفصل الثاني : تفريغ وتحليل بيانات كتاب شروط النهضة .

وتم تحديد نوع العينة بالنسبة للدراسة التي عمد فيها إلى الوقوف على مضمون التخلف والتقدم في فكر مالك بن نبي الذي ترك إنتاجا فكريا معتبرا بعنوان " مشكلات الحضارة "، في شكل سلسلة من الكتب فعينتنا كانت قصديه حيث اقتصرنا على كتاب شروط النهضة نظرا لأننا ارتأينا أنه يخدم دراستنا . كما اختارا أداة تحليل المحتوى كوسيلة نكشف من ورائها علاقة الفكر التربوي بمشكلة التخلف من خلال كتاب شروط النهضة .

وقد تطرقا إلى مجموعة من التوصيات يراها هامة جدا يذكر منها :

ـ ضرورة الاهتمام بالبيئة الثقافية والاجتماعية والسياسية وصياغة منهجها ومضمونها العلمي من خلال الدراسات الأكاديمية الجادة .

ـ ضرورة الرفع من نسبة المقروئية في العالم العربي الإسلامي و الجزائر خاصة .

ـ الاهتمام بالتربية والتنشئة الاجتماعية من خلال تكييف المجتمع مع المستجدات الجديدة مع المحافظة على الأصالة وذلك من خلال تربية علمية مشكلة تنظم سلوك الأفراد وتكسبهم الخبرات اللازمة وتعمل على الضبط الاجتماعي ،وتعمل على التحضير والنمو والإدماج الاجتماعي.

ـ القيام بدراسات علمية حديثة تتوافق مع الجديد للعالم وذلك بالاعتماد على مقاربات تعالج فعلا التنمية الاقتصادية ،الاجتماعية،والسياسية ،التربوية ،والنفسية و الثقافية.

ـ القيام بعملية تشخيص حقيقية لواقعنا المتخلف من خلال تحليل وتفسير و استنباط العجز والقصور على المستوى النفسي والاجتماعي .

ـالقيام بإصلاحات تربوية فعالية تتوافق مع أسس المجتمع.

7-5 : الدراسة الخامسة :

مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة ، من إعداد الأستاذ حسن موسى العقبي ، رسالة ماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة ، كلية أصول الدين ، الجامعة الإسلامية ، غزة ، 2005 .

استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي ، قصد دراسة آراء وأفكار مالك بن نبي ، وتحليلها ونقدها حسب العقيدة الإسلامية .

وقد جاءت الدراسة متضمنة لأربعة أبواب :

كل باب يشتمل على عدد من الفصول حسب ما يلي :

الباب الأول : مالك بن نبي عصره ، حياته (يشتمل على فصلين) :

الفصل الأول : عصره وتأثره به ، ويشتمل على أربعة مباحث

الفصل الثاني : حياته ويشتمل أيضا على أربعة مباحث

الباب الثاني : موقف بن نبي من الحضارة الغربية المعاصرة ، والاستعمار ن والإستشراق ، ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : موقفه من الحضارة الغربية المعاصرة ، ويشتمل على مبحثين

الفصل الثاني : موقف مالك بن نبي من الاستعمار ،ويشتمل على ثلاثة مباحث .

الفصل الثالث : موقف مالك بن نبي من الاستشراف ، ويشتمل على أربعة مباحث .

الباب الثالث : موقف مالك بن نبي من المذاهب الفكرية المعاصرة ويشتمل على أربعة فصول : الفصل الأول : موقف مالك بن نبي الرأس المالية ، ويشتمل على مبحثين .

الفصل الثاني : موقف مالك بن نبي من الديمقراطية ، ويشتمل على مبحثين .

الفصل الثالث : موقف مالك بن نبي من الماركسية الشيوعية ، ويشتمل على ثلاث مباحث

الفصل الرابع : موقف مالك بن نبي من التوجيه ، ويشتمل على مبحثين .

الباب الرابع : موقف مالك بن نبي من الفكر الإسلامي الحديث ، ويشتمل على فصلين .

الفصل الأول : موقفه من الدعوات الإصلاحية ورجالها ، ويشتمل على أربعة مباحث

الفصل الثاني : مستقبل الإسلام عند مالك بن نبي ، ويشتمل على ثلاثة مباحث .

ومن أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث :

- حبه للعلم والعلماء منذ الصغر وشغفه بالقراءة والثقافة ، رغم الظروف التي عاشها في ضل الاحتلال الفرنسي .
- قدرته الفائقة على التحليل ودراسته للاستعمار ، وإبداعه في الرد العقلي على المستشرقين ، كما قدم نقدا قويا للفكر الرأسمالي الاقتصادي من خلال مناقشة للفكر الماركسي الشيوعي بموضوعية وعقلانية .
- كان مالك بن نبي مقلدا لابن خلدون في مفهوم سقوط الحضارات لكن بذكر أسباب جديدة للدمار .

الفصل الثاني

مالك بن نبي سيرة وفكر

الفصل الثاني

مالك بن نبي سيرة وفكر

تمهـــــــيد

1. مراحل نشأته وحياته
2. العوامل التي أثرت في شخصيته
3. أعماله وثرواته الفكرية

تمهيـــــــــد :

مالك بن نبي، هذا الفيلسوف والمفكر والداعية الإسلامي الذي خرج من رحم معاناة قاسية جعلته أكثر صلابة في مواقفه ضد المستعمر الفرنسي ، فهب ليدافع بفكره وبكل ما يملك ، فحارب المستعمر حتى في عقر داره.

ومع أنه المهندس الكهربائي، إلا أنه كان مهتما بالثقافة والفكر الاجتماعي والتاريخي والديني، حيث بحث في أسباب مشكلات العالم الإسلامي ، ومعالجتها على أساس من علم النفس والاجتماع ، فكان المفكر والفيلسوف والداعية الإصلاحي ، حتى أصبح وكما سماه بعضهم (بن خلدون العصر) ، وقد ساهم في التجديد الإسلامي ووضع الشروط لنهضة وولادة المجتمع الإسلامي المتحضر .

مالك بن نبي تلك الشخصية الشاملة، التي تستحق الوقوف عندها، والتأمل في تاريخها الفكري الغزير، ومواقفها الثابتة لاستقاء العبر و العظات،ولنرتقي بمجتمعاتنا ونحافظ على جذورها الإسلامية الثابتة، لتصمد أمام طوفان الثقافات الغربية.

1 -نشأته وحياته:

حياة المفكر الإسلامي الكبير مالك بن نبي كانت سلسلة حافلة بالأحداث و المؤثرات، فالحقبة التي عاشها تعد حقبة ذهبية ساعدت في صقل شخصيته وتكوينه، لذا قمنا بتقسيمها إلى مراحل كالآتي:

1-1 : المرحلة الأولى. طفولته (1905 - 1930م):

ولد مالك بن عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي في مدينة قسنطينة بالجزائر في 1905مبين أسرة فقيرة متدينة ومجتمع محافظ .

هاجر مع أهله إلى تبسة بسبب الاحتلال الفرنسي عام 1908، ولأن أباه كان شديد الفقر، تبناه عمه الأكبر ليعيش معه في قسنطينة، "فقد كان والدي ردحا من الزمن في تبسة دون مورد يعيش منه ودون عمل"[1].

وبعد موت عمه أعادته زوجة عمه إلى أهله في تبسة، "لقد فعلت ذلك لان مواردها لم تعد تسمح لها بإعالتي".[2]

ولأنه ولد لأسرة فقيرة وكان أبوه لا يجد عملا، كانت أمه هي التي تعمل، " ففي العائلة الفقيرة لابد أن يجوع الصغار متى فقد الأب لدراسته و أن أمي كانت تحول دون ذلك بممارستها للخياطة، وبالتالي هي التي كانت تمسك بكيس النقود الذي كان دائما فارغا". [3]

ورغم ذلك دخل مدرسة القرآن وأيضا دخل المدرسة الفرنسية، ولشدة الفقر قامت والدته برهن سريرها الخشبي لتحصل على النقود اللازمة لدراسته .

لقد كان هناك بون شاسع بين المدرستين والمعلمين فيهما، هذا ما جعله لا يطيق هدا الوضع المتناقض، بل ويخفق وينقطع عن مدرسة القرآن التي قضى بها أربع سنوات، "وحتى ذلك الوقت لم أكن قد تجاوزت في قراءتي للقرآن سورة (سبح)". [4]

---

[1] – مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن ، ص 18

[2] – نفس المرجع ، ص 19

[3] – نفس المرجع ، ص 20

[4] – نفس المرجع ، ص 24

وفي هده الفترة حدث "حدثا مهما جاء يغير مجرى حياتي"، ألا وهو مرافقة أبيه إلى قسنطينة وكان يتمنى العودة إليها منذ أمد بعيد ، وهناك تعرف إلى جده لأبيه (بابا الخضير)، وقد كان من مؤيدي (الشيخ بن مهانة) أحد رواد رجال الإصلاح الجزائري آنذاك.

ولم تتقدم دراسته في قسنطينة بسبب كثرة الدلال الذي حظي به من امرأة عمه (بهيجة)، فأعيد إلى تبسة مرة أخرى، ولكن من تلك الإقامة بدأت الأمور تتصنف في تفكيره وذاته، حيث عايش الفرق بين المدينتين، فقال عن ذلك : "ففي تبسة كنت أرى الأمور من زاوية الطبيعة والبساطة، أما في قسنطينة فقد أخذت أرى الأشياء من زاوية المجتمع والحضارة واضعا في هذه الكلمات محتوى عربيا و أوروبيا في آن واحد".[1]

وعاد إلى المدرسة الفرنسية في تبسة، وفي تلك الفترة كانت الحرب العالمية الأولى (1914م)، ولكن لم تكن لها وقع كبير على نفسه لأنه كان ما يزال صغيرا، "وعلى كل فاني اعتقد أن جميع الشعوب كانت في ذلك الوقت طفلة مثلي" .[2]

وأدت الحرب آنذاك إلى فقدان الورق فكان يستخدم الورق المطبوع في لف المشتريات فأصبح يهتم بقراءة الصحف وأخبار الحرب من مخزن بقال الحي (سي شريف)، وبذلك أصبح قريبا من مسرح الحرب العالمية الأولى.

حصل على الشهادة الابتدائية في تبسة بتقدير جيد، رغم أنه كان أول الطلاب المجتهدين، لكن مدير المدرسة الفرنسي "كان يسلم دفتر العلامات لطفل فرنسي " الذي حصل على درجة جيد جدا، ثم انتقل إلى قسنطينة ليكمل دراسته في مدرسة (سيدي الجيلي) عام 1920م بعد أن نجح في " امتحان المنح، ذلك الذي كان ذا دلالة لطفل من (الأهالي) ماكان في وسع أبويه أن يرسلاه إلى المدرسة الثانوية"[3].

التوجه الذي أرادته عائلته هو أن يكون عدلا في الشرع الإسلامي.

وقد تتلمذ في تلك المدرسة على يد:

---

[1] – نفس المرجع ص 28

[2] – نفس المرجع ص 29

[3] – نفس المرجع ص 34

أساتذة عرب أمثال : الشيخ (عبد المجيد)، والشيخ (بن العابد)، والشيخ (مولود بن موهوب) وكان مفتي في المدينة وقد تأثر بن نبي به كثيرا وبحسه الوطني.

أساتذة فرنسيين أمثال: (مسيو مارتان)، و (بوبريتي).

كان بن نبي في السنوات الأخيرة من دراسته قلقا على مستقبله، ويفكر دائما ماذا سيعمل بعد التخرج من المدرسة، فكل السبل والأبواب كانت تبدو موصدة أمامه.

وبعد أربع سنوات من الدراسة تخرج من المدرسة الثانوية في حزيران عام 1925م، "هذه المدرسة التي كنت أعدها سجناً نتعلم فيه تحرير واقعة زواج أو طلاق... ها هي ذي تطلق سراحي".[1]

بعدها قرر هو وصديق له السفر الى فرنسا للعمل فيها، ولكن لم يوفق فرجع إلى الجزائر عام 1927 م.

أضناه البحث عن عمل في تبسة وأخيرا عمل كمساعد في محكمة، ثم عين في محكمة (آفلو) في الجنوب الوهراني كان ذلك في مارس 1927م.

و خلال عطلته سنة 1928م تعرف إلى الشيخ (عبد الحميد بن باديس) لأول مرة فقد كان يقرأ له جريدة الشهاب و يتأثر بحسه الوطني.

تقدم إلى وظيفة عدل في (شاتودان) وقبل فيها، فترك وظيفته في (أفلو) ليعمل في (شاتودان) كعدل، وكانت هذه المدينة مركزا كبيرا للمستعمرين، وقد كانت وسطا ملوثا فاسدا، فلم يعجبه الوضع هناك وسرعان ما قدم استقالته.

ثم عاد إلى تبسة، وفي عام 1929م دخل مع زوج أخته في مشروع فشاركه في (مطحنة)، وقد كان ذلك العام عام كساد التجارة العالمية فالأسعار تدهورت وانتهي المشروع بالفشل.

[1] – مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن الطالب ، نفس المرجع ص 9

1-2 :المرحلة الثانية: الطالب والإصلاحي (1930-1939م)

نصحه والده بالسفر إلى باريس لدراسة الحقوق، وسافر إلى فرنسا عام 1930م، "فكانت الرحلة هنا علمية جادة، طمح فيها (ابن نبي) للدراسة بمعهد الدراسات الشرقية في باريس أملاً في التخرج محامياً" ولكن مدير المعهد رفض ، لذا التحق بمدرسة (اللاسلكي)، كمساعد مهندس في البداية والسبب هو في قوله: "شعرت أن إمكانياتي متواضعة لأنني تركت الرياضيات مند سنتي الأولى بمدرسة قسنطينة ... فقررت إذن أن أنتسب إلى درجة مساعد مهندس".

ولم تكن الجزائر بعيدة عن ذاكرته إذ كان الرابط الروحي بينه وبين الوطن قويا، حيث كان يجهر بمواقفه ضد الاستعمار ويحاربه في عقر داره.[1]

وفي عام 1931 تزوج من فرنسية أسلمت وسمت نفسها خديجة، وكانت تساعده كثيرا في غربته وتهون عليه.

وبجانب الدراسة كان يدعو للإصلاح في تلك الفترة، فدعوت في الحي اللاتيني للإصلاح، والوهابية، والوحدة المغربية، أي للشعارات المختلفة التي كانت تغطي معنى واحد (الإسلام).

وفي عام 1932 م عاد إلى الجزائر ليجد موجة الإصلاح تشمل كل أرجاءها، وبعد عودته إلى باريسزار والدة زوجته في " دروكس " وهناك تعرف على الريف بفرنسا، وكان يزور الجزائر كل عام في الإجازة الصيفية.[2]

وقد أخذ بنصيحة مدرس الرياضيات في مدرسة اللاسلكي فقام بالتسجيل في قسم الكهرباء والميكانيك ليصبح فيما بعد مهندسا في هذا المجال.

حاول السفر تارة إلى جدة وتارة إلى مصر وأخرى إلى ايطاليا وأخيرا إلى أفغانستان، ولكنه لم ينجح في أي منها بسبب السياسات الاستعمارية والمتعاونين معها من العرب آنذاك.

---

[1] – مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن الطالب ، ص 11

[2] – نفس المرجع ، ص 12

وفي عام 1936م تعرف إلى الشيخ (محمد عبد الله دراز) الذي كان قادما ببعثة أزهرية في باريس.

وقابل الوفد الجزائري القادم من الجزائر في باريس الذي كان يضم كل من الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي.[1]

ثم عاد إلى تبسة مرة أخرى ليعيش هناك هو وزوجه، وبعد أن ضاقت بهم الحياة ودخل العالم في الحرب العالمية الثانية، قرر العودة إلى فرنسا هو وزوجه في 22 سبتمبر 1939م.

1-3 : المرحلة الثالثة: المفكر الفيلسوف و الداعية الإصلاحي (1939 – 1973م)

في باريس عاد يناضل ضد المستعمر، وينشر أفكاره الإصلاحية ، ويكتب المؤلفات فكتب أروع كتبه، "ففي سنة 1946، كتب كتابه "الظاهرة القرآنية" ثم "شروط النهضة"عام 1948م، و"وجهة العالم الإسلاميعام1954م.

ثم توجه إلى القاهرة سنة 1956 بعد إعلان الثورة المسلحة في الجزائر، وأقام بالقاهرة لاجئا سياسيا سبع سنين،وتعلم اللغة العربية وأتقنها، وهناك تفرغ للعمل الفكري والإصلاحي، فكان يلقي المحاضرات والندوات ويشارك في المؤتمرات الإسلامية في الأقطار العربية مثل سوريا ولبنان، وكان عضوا في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، وهناك كتب كتابه "فكرة الإفريقية الآسيوية سنة1956 وكتب أخرى.[2]

بعد استقلال الجزائر عاد إليها عام 1963م ، وعين مديراً للتعليم العالي في (جامعة الجزائر) المركزية، حتى استقال سنة (1967م) متفرغاً للكتابة والإصلاح، وإلقاء المحاضرات، وإقامة الندوات، وكان بيته بمثابة مكتبة ومدرسة ينهل منها الطلاب والباحثين في الفكر والثقافة الإسلامية ، وفي هده المرحلة بدأ في كتابة مذكراته (مذكرات شاهد القرن).

[1] – نفس المرجع ، ص 14

[2] – نفس المرجع ، ص 22

و ظل مالك بن نبي يناضل بفكره وينير للأمة طريقها إلى أن توفي بمدينة الجزائر سنة 1979.

2 – العوامل التي أثرت في فكر وشخصية مالك بن نبي:

لقد كانت حياة بن نبي في تلك الحقبة حافلة بالمؤثرات والمواقف التي أثرت في تكوينه و فكره، فقال: هكذا إذن فقد استفدت بامتياز لا غنى عنه لشاهد ، حينما ولدت في تلك الفترة.

أهم تلك المؤثرات:

هناك في تبسة تأثر بقصص وحكايات جدته لأمه الحاجة زليخة ، التي كانت تقصها عليه في طفولته، وعن معاناتهم القاسية وهجرتهم بسبب الفرنسيين ، وكيف تركت أمها الحاجة بايا وعائلتها مدينة قسنطينة حين دخلها الفرنسيون، كانت قصة مؤثرة وما تزال حية في نفسه، فكانت جدته هي مدرسته الأولى ، فقال فيها: "هذه المرأة كانت بارعة في قصص الحكايات إذ كانت تشدنا إليها ونحن متحلقون حولها . كانت هي مدرستي الأولى فيها تكونت مداركي" ، وأيضاً قصصها عن العمل الصالح وما يتبعه من ثواب، وعمل السوء وما يجره على المسيء من عقاب ، كانت تعمل على تكوينه وتنشئته نشأة إسلامية سليمة كما قال: "كانت هذه الأقاصيص الورعة تعمل على تكوني دون أن أدري"[1].

تأثر بأساتذته في المدرسة الثانوية و منهم :

الشيخ عبد المجيد و مسيو مارتان وقد قال عنهما : "هذا الشيخ من ناحية، ومسيو مارتان من ناحية أخرى ، كونا في عقلي خطين حددا فيما بعد ميولي الفكرية".

أستاذه الشيخ مولود بن موهوب وقد كان سببا في تأثره بالحركة الإصلاحية في الجزائر، "وقد تولى الشيخ مولود بن موهوب جذب أفكارنا وعقولنا إلى خط تلك الحركة التقليدية القديمة، و لكنها وجدت في أرواحنا عناصر جديدة أضيفت إلى بنائها" ، وكانت دروس الشيخ (بن موهوب) في التوحيد و السيرة ، ودروس الشيخ بن العابد في الفقه هي التي توجهه الاتجاه العقائدي الصحيح.[2]

[1] – نفس المرجع ص 66

[2] – نفس المرجع ص 68

الكتب والمؤلفات كانت من المؤثرات القوية على نفس و فكر بن نبي، فقد بدأ الشرق القديم منه والحديث يستهويه بأمجاده ومآسيه ، فقرأ كتابين كان يعدهما الينابيع البعيدة والمحددة لاتجاهه الفكري ، وهما الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق لأحمد رضا، و رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، وفي اعترافه لمؤلفيهما قال: "إنا مدين لهما على كل حال بذلك التحول في فكري منذ تلك الفترة".[1]

ومما صقل اتجاهه الفكري وأثرى فيه حب الشعر العربي القديم منه والحديث و أيضا حب الأدب الفرنسي،هو تردده و أصدقاؤه على الصالون الأدبي في مقهى (بوعربيط) ومقهى (بن يمينة)، قراءته للصحف ولاسيما السياسية منها، فقد كانت تشعره بالوطنية وتشحذ بل وتشعل فيه روح الحماسة ضد المستعمر، مثل جريدة الإقدام، والراية، وجريدة الإنسانية التي قال فيها: "كانت لذلك تثأر لي من ذلك الوضع الذي سوف نسميه (النظام الاستعماري)، الذي عبأنا ضده في تلك الفترة ، من غي، لذلك كان دائما وطني النزعة.[2]

مكتبة المدرسة الثانوية التي كان يستعير منها الكتب أيضا ساعدت في إثراء فكر بن نبي وثقافته، فقد استعار منها كتابا أسره كثيرا وهو للفيلسوف الفرنسي **كوندیلا** فهدا الكاتب يعد من أساتذة مدرسة علم النفس الفرنسية،"لست أدري أي كسب علمي حصلت عليه من **كوندیلا** إنما هذا الكتاب وضع عقلي وأفكاري وفضولي أو بالأحرى ثقافتي في اتجاه محدد "، ومنذ ذلك الوقت أصبح يتردد على المكتبات الفرنسية يقرأ في الفلسفة وعلم النفس.[3]

الوجود الاستعماري في الجزائر: حيث كانت الآثار الاستعمارية في تلك الفترة تظهر يوما بعد يوم ، فالجالية الأوربية في تزايد ، وملابس الناس وزينتهم كانت على الطراز الأوروبي، هذه كلها مظاهر تطبع في النفس الوجود الاستعمار، وقد كانت أراضي الفلاحين تمنح للأوروبيين، كل هذا وغيره حرك الغضب وأشعل الروح الوطنية في نفس بن نبي ، جعله

[1] – نفس المرجع ص 28

[2] – نفس المرجع ص 93

[3] – نفس المرجع ص 144

ينضم إلى صفوف الريفيين ، ويرسموا الخطط لاجتياز الحدود عبر الشمال من وهران ، لكن هذه المشاريع وغيرها باءت بالفشل.

تنقله المتواصل بين مدينة تبسة القرية الريفية وقسنطينة المجتمع المتحضر، فالفرق الواضح بينهما جعله يدرك الفرق بين الحضارات،حيث قاس ذلك على المجتمعين العربي والأوروبي، مما ساعده على التحديد الجيد للمشكلات الحضارية فيما بعد، قال: "في تبسة كنت أرى الأمور من زاوية الطبيعة والبساطة، أما في قسنطينة فقد أخذت أرى الأشياء من زاوية المجتمع والحضارة واضعا في هذه الكلمات محتوى عربيا وأوروبيا في آن واحد".[1]

عمله في محكمة بمدينة آفلو جعله يلمس فضائل الشعب الجزائري الأصيلة المتجذرة فيه، والتي لم يغيرها المستعمر فقد قال عنها: " كانت آفلو المدرسة التي تعلمت فيها أن أعرف أكبر معرفة فضائل الشعب الجزائري التي ما تزال سليمة لم يمسها شيء، كما كانت حقاً في الجزائر كلها قبل أن يعيث الاستعمار فيها فساداً".[2]

تسجيله في وحدة الشبان المسيحيين الباريسيين جعله يكتشف جوانب في روحه المسلمة الموحدة التي لا تتسع للمفاهيم الثالوثية التي يحملها المسيحيون،فبدأ يدخل بمحاورات شديدة معهم و بدأ بعضهم يتأثر بأفكاره ويقتنع بها.

تردده على متحف الفنون والصناعات بباريس، جعله يتعرف بشكل كبير ودقيق على تراث وتاريخ الثقافة الأوروبية.

تأثر كثيرا بصديقه **حمودة بن الساعي** بباريس الذي كان سببا في زيادة اهتماماته بالفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ أكثر من اهتمامه باللاسلكي ، حيث قال في شهادته: " أدين لحمودة بن الساعي باتجاهي كاتبا متخصصا في شؤون العالم الإسلامي".

زيارته لمدينة " دروكس" القرية الريفية الفرنسية التي كانت تعيش بها والدة زوجته، فقد تأثر كثيرا بالريف هناك والمناظر الخضراء ، وكشف جانبا مهما من جوانب الحضارة والثقافة

[1] – نفس المرجع ، ص 146

[2] – نفس المرجع ، ص 147

الأوروبية.

3 – أعماله وثرواته الفكرية:

1-3 : المؤلفات المطبوعة :

1- الظاهرة القرآنية

2- شروط النهضة

3- حديث في البناء الجديد

4- الإسلام والديمقراطية (يوجد ضمن كتاب تأملات في طبعته الجديدة)

5- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي

6- مذكرات شاهد القرن (الطفل + الطالب)

7- ميلاد مجتمع

8- أثر المستشرقين في الفكر الإسلامي الحديث

9 - المسلم في عالم الاقتصاد

10- فكرة كومنولث إسلامي

11 - في مهب المعركة

12 - مشكلة الثقافة

13- بين الرشاد والتيه

14 - تأملات

15 ـ لبيك (وهي الرواية الوحيدة التي كتبها بن نبي ولم تترجم للعربية بعدُ)

16 ـ وجهة العالم الإسلامي (هذا الكتاب نُشر بعنوان: نداء الإسلام ، كما نُشر بعنوان : مستقبل الإسلام ، أي أن له ثلاث ترجمات على الأقل)

17 ـ النجدة : الشعب الجزائري يُباد (وهو رسالة صغيرة كتبها في القاهرة ، مساهمة منه في كشف جرائم الإبادة التي تعرض لها الشعب الجزائري على يد الاحتلال الفرنسي)

18 ـ دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين

19 ـ الفكرة الإفريقية الآسيوية

20 ـ الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة

2-3 : المؤلفات المفقودة :

21 ـ دولة مجتمع إسلامي

22 ـ العفن أو(الغسيل) (هو الجزء الثالث من مذكرات شاهد القرن)

23 ـ خطاب مفتوح لخروشوف

24 ـ نموذج المنهج الثوري

25 ـ المشكلة اليهودية

26 ـ اليهودية أم النصرانية

27 ـ دراسة حول النصرانية

28 ـ العلاقات الاجتماعية وأثر الدين فيها

29 ـ مجالس دمشق (وهي مجموعة من المحاضرات والمسامرات الفكرية قدمها في دمشق)

30 ـ مجالس تفكير (مجموعة من الدروس والتحليلات الفكرية أدارها في بيته قبل وفاته)

الفصل الثالث

الحضارة من منظور مالك بن نبي

الفصل الثالث

الحضارة من منظور مالك بن نبي

تمهيـــــــد

1. مفهوم الحضارة
2. مراحل الدورة الحضارية
3. العناصر المكونة للحضارة
4. العوالم الثلاثة للحضارة

استخلاصات

تمهيـــــد:

مالك بن نبي فيلسوف حضارة وعالم اجتماع وعالم تربية مرموق، لقد عاشت فكرة الحضارة في عقله ووجدانه ، وشغلت تفكيره في كل كتاباته ، إلى درجة نستطيع أن نقول معها إن الفكر الإسلامي المعاصر لم يشهد تقريبا مفكرا شغلته قضية الحضارة مثل مالك بن نبي ، اعتبر بن نبي الحضارة كوحدة للتحليل دفعة إلى تطوير جملة من الأدوات المنهجية ، والمعرفية لدراسة مشكلات الحضارة الإسلامية والإنسانية ، وتطرقنا في هذا الفصل إلى مفهوم الحضارة ، والدورة الحضارية : مرحلة الروح ، مرحلة العقل ، مرحلة الغريزة ، والعناصر الثلاثة المكونة للحضارة : الإنسان ، التراب ، الوقت ، والعوالم الثلاثة للحضارة : عالم الأشخاص ، عالم الأفكار ، وعالم الأشياء .

1- : مفهوم الحضارة :

إن المتبع للفظ الحضارة ، كما ورد في معاجم اللغة العربية ، لا يكاد يخرج عن دائرة الإقامة في الحضر أي المدن والقرى ، فهو نقيض البداوة والتي تعني الإقامة المتنقلة في البوادي ، حيث يرى ابن المنظور في معجمه لسان العرب إن المصطلح الحضارة يعني إقامة الحضر وهي خلاف البدو أي العيش في مكان وفق معطيات وطرق تخلف عن تلك المعهودة في البادية ، الحضارة تعني الإقامة في الحضر ، بخلاف البداوة التي تعني الإقامة في البوادي .

1-2 : الحضارة عند الغرب :

1-2-1: تعريف البرت شفيتسر:

يعرفها بقوله الحضارة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماعات والجماهير على السواءّ ، إن الحضارة في تصوره انبعاث روحي لجماعة من الناس يربطهم مفهوم متقارب للوجود . فينعكس ذلك على مختلف ألوان نشاطهم في الفن والدين والفلسفة والسياسة والاقتصاد ، ولهذا يكون مفهوم كل جماعة متميزا عن غيره في مجال التعبير والانبعاث الروحي فالشخص ليس هو المكون للحضارة (من صنع إرادته) بل هو مخلوق حضارته ، إن روح كل حضارة تحمل إمكانات جديدة خاصة بها ، تعبر عن نفسها من خلالها هذا التعبير الذي ينشا وينحل ولن يعود أبدا ، لذا لا يوجد فن واحد أو رياضيات واحدة أو علم واحد ، اذ لكل حضارة فنها وادبها وعلومها الخاصة ، وان لكل علم أو فن حياة محدودة مستقلة بذاتها مشابهة لحياة النباتات و الأزهار، وكما أن أزهار

الحقول تنمو من دون أن تعي هدفها وغايتها ، تنمو الحضارات من دون أن تشعر بفكر أو غاياتها .[1]

يعتبر شفيتسر الحضارات مجرد تراكيب عضوية يتألف منها التاريخ ، وان التاريخ أي حضارة يعادل تاريخ الإنسان أو الحيوان أو الشجرة ، لذا يمكن من خلال تعيين سياق حضارة ما ، تعيين سياق باقي الحضارات ، لان الحضارة مشابهة للكائن العضوي وللأدوار التي يمر بها طفولة ، شباب ، كهولة ، شيخوخة فموت ففناء ، وان هذا الطابع العضوي للحضارات قد شمل التاريخ .[2]

1-2-2 : تعريف ارنوند توينبي :

توينبي لم يقف عند هذا التصور بل رأى أن للحضارات حركة شاملة مركبة متقدمة إلى الأمام وهي في الوقت نفسه حصيلة حركات دورية جزئية. أي أن توينبي قد جمع بين معنى التقدم في التاريخ من بداية ومعنى ونهاية، وبين التكرار الدوري، وقدم تشبيها يعبر من خلاله عن هذه الحركة المركبة الشاملة للحضارات فقال: (إن الدواليب تدور فعلاً على محاورها دورات متكررة متتابعة ولكن حركتها الدورية هذه، هي التي تسير بالعجلة إلى الأمام.)[3]

ولتوضيح هذه الفكرة بشكل أوسع نقول: لقد درج المفكرون والباحثون بقضية التغير الحضاري والتبدل التاريخي على تقسيم مسار حركة التاريخ إلى شكلين رئيسين هما التالي:

---

[1] – كمال بن قوية ، الأخلاق وأهميتها في بناء الحضارة عند كل من مالك بن نبي و البرت اشفيتسر ، رسالة ماجيستار، كلية أصول الدين ، جامعة الجزائر ، المشرف عمار جيدل ،2002 ، ص43

[2] – نفس المصدر ، ص 45

[1] – هنا غانم ، فلسفة الحضارة ، مطبعة ابن خلدون، دمشق، 1982 م ، ص 110 .

الشكل الأول: أخذ صورة الخط المتقدم إلى الأمام من البداية إلى النهاية، وهذه الصورة ورثناها عن الأديان الموحدة المؤمنة بسير البشرية بمسار متقدم من بدء الخليقة وإلى أن تقوم الساعة، بمعنى آخر إن التغيير الحضاري يسير في خط أساسي له بداية ومنطلق وغاية ونهاية. ويعتبر القديس أوغسطين أحد ممثلي هذا الاتجاه.

الشكل الثاني: أخذ صورة التغير الدوري، وهي صورة دورية تمثل هذا التغير متخذاً شكل دورة واحدة أو دورات متتابعة وابن خلدون واحد ممن يمثلون هذا الاتجاه أي اتجاه التعاقب الدوري للحضارات، ولكن ضمن إطار الدين الإسلامي بوجه عام. وهناك شكل ثالث نتج عن الجمع بين الصورة الأولى، التي تتبع خطاً متجهاً إلى غاية، وبين الصورة الثانية التي تتمثل بالتكرار الدوري (أو التعاقب الدوري). وتوينبي يتبنى الشكل الثالث، حيث رأى أن للحضارة حركة شاملة متقدمة إلى الأمام، وهي بالوقت نفسه حصيلة حركات دورية جزئية، ولتوينبي تشبيهات كثيرة حول هذه الحركة فيشبهها بحركة مكوك الحائك المستمر ذهاباً وإياباً على وتيرة واحدة، وهي على الرغم من ذلك، تنسج نسيجاً يمتد ويتسع تدريجياً (وكذلك تنسج يد الأيام نسيج التاريخ من خلال الأحداث المتكررة تكرراً وبإمكاننا أن نجد لهذا المفهوم صوراً و تشابيه واستعارات أخرى، ولكن الجوهر هو نفسه أي مفهوم التطور الناتج عن التكرار الجامع بين مفهومي الحركة المتجهة إلى غاية (أمامية أو خلفية)، والحركة الدائرة على ذاتها والعائدة إلى ما كانت عليه)[1] .

[1] – نفس المرجع ، ص 111 .

3-1 :الحضارة عند العرب :

3 -1 : تعريف بن خلدون للحضارة :

يرى ابن خلدون أن حياة الدول والشعوب تمر بفترات ومراحل قلما تختلف، حيث تنتقل من طور البداوة والتوحش إلى حياة البذخ والترف ورقة العيش، لتصل في نهاية المطاف إلى سن الشيخوخة والهرم ثم الفناء، وهي تتشابه ي ذلك مع الأطوار التي تعرفها حياة أي فرد من النوع الإنساني، بداء من فترة الطفولة والشباب، إلى الكهولة الشدة، ثم الشيخوخة والهرم.

وحسب رأي ابن خلدون فإن المراحل المذكورة طبيعة في الدول والأمم كما هي طبيعة في الأفراد . وهو إذ صنف تاريخ الدول والمجتمعات إلى ما ذكرنا من المراحل فإنه يعتمد على عنصرين مهمين:

الأول: بناء على ما جاء في القرآن الكريم من الشواهد والأدلة التي تعزز ما ذهب إليه وقرره.

الثاني : بناء على تجارب الحياة، وتواريخ الأمم التي قلما تحيد عن هذا المقياس .

هذا وقد رأينا تناول كل مرحلة بالتفصيل، مشيرا إلى مظاهرها وأوصافها، فكان لازما لننظر فيها علينا بعين التأمل والبصيرة ونتأكد من صدق وحقيقة ما يقول .
المرحلة الأولى : فيصفها بقوله : "لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم، فحسهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون [1]"

[1] – ابن خلدون ،المقدمة ، المرجع السابق ، ص 170

المرحلة الثانية : " فيصفها بقوله ان الجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة ، ومن الشظف إلى الترف والخصر ، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحدية ، وكسل الباقين عن السعي فيه ، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء، وتؤنس منهم المهانة والخضوع ، ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول ، وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم، وسعيهم إلى المجد، ومراميهم في المدافعة والحماية فلا يسعهم ذلك بالكلية، وإن ذهب منه ما ذهب، ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم [1].

المرحلة الثالثة : " تأتي مرحلة الجيل الثالث الذي يعرف بجملة من الأوصاف لا تحمد عاقبة أصحابها، لكونهم ينسون تماما خصال الشجاعة والبأس ويستكينون إلى رغد العيش، ويتخلون عن واجباتهم في الدفاع عن بيضتهم، وفيهم يقول : وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة، كأن لم تكن ويتقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنقوه من النعيم وغضارة العيش، فيصيرون عيالا على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة، ويلبّسون على الناس في الشارة والزي، وركوب الخيل وحسن الثقافة، ويموهون بها . فإن جاءهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورهم . فإن جاءهم المطالب لهم، لم يقاموا دافعة، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة، ويستكثر بالموالي، ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حين يتأذن الله بانقراضها "[2]

[1] – نفس المرجع ، ص 171

[2] – نفس المرجع ، ص 172

ويجزم العلامة ابن خلدون بصحة هذه النظرية، وعمومها في الغالب من الأحوال على الأمم والدول، فهو يذكر ذلك وبكل ثقة، ومستنده التجربة والعلم بأحوال الأمم الماضية، وبعلوم القرآن، وقصص الأولين ممن ذكرهم الله فيه فيقول : فهذه كما تراه ثلاثة أجيال، فيها يكون هرم الدولة وتخلفها ..وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة ، ولا تعدوا الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده " [1] ثم يضيف ابن خلدون، دليلا من القرآن يؤيد به نظريته ، وهو قوله تعالى : { وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ } [النحل:61].

1-3-2 : تعريف ابن باديس للحضارة :

شرح ابن باديس فكرة الدورة الحضارية، أو مراحل تطور الأمم، وبسطها انطلاقا من فسيره لآية قرآنية، هي قوله تعالى {وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أو مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } [الإسراء:58].

ولكنه لم يخرج عن المقدمات والنتائج التي خلص إليها ابن خلدون، وإنما تناول القضية بصفته عالما مفسرا لكتاب الله، مما مكنه من تأصيل الأطروحات التي درسها ابن خلدون قبله ،وعلى هذا المنوال، كان الإمام عبد الحميد بن باديس يمهد بذكر الأطوار الثلاثة التي تمر بها الأمة من شباب وكهولة وهرم قبل أن يشرح الآية ، فيقول : " الأمم كالأفراد تمر عليها ثلاثة أطوار : طور الشباب وطور الكهولة، وطور الهرم ثم يشرح تلك الأطوار واحد تلو الآخر، كل بعلاماته ومميزاته ، فيقول: " فيشمل الطور الأول نشأتها إلى استجماعها قوتها ونشاطها، مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة، ويشمل الطور الثاني ابتداء أخذها في التقدم والانتشار وسعة النفوذ، وقوة السلطان إلى استكمالها قوتها، وبلوغها غاية ما كان

[1] – نفس المرجع ، ص 174

لها من استعداد، وما لديها من أسباب ويشتمل الطور الثالث إبداءها في فناء الاضمحلال، إما بانقراضها من عالم الوجود، وإما باندراسها من عالم السيادة و الاستقلال "[1].

ويجزم ابن باديس بوجود إلى بوجود هذه المراحل، وبمرور الأمة بها –كما جزم بذلك سلفه ابن خلدون– فيقول : " وما من أمة إلا ويجري عليها هذا القانون العام، وإن اختلفت أطوارها في الطول والقصر، كما تختلف الأعمار [2]".

يرجع ابن باديس إلى تاريخ أمة بني إسرائيل فيشرح المراحل الثلاثة التي مرت، مستنير بآيات القرآن تتحدث عن هلاك الأمم فيقول : "هذه السنة الكونية التي أجرى الله عليها حياة الأمم هذه الدنيا أشار إليها في كتابه العزيز "[3]، فذكر أعمار الأمم مقدرة بآجالها في مثل قوله تعالى : { وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أو مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } [الأعراف:34]، وذكر إنشاء الأمم على إثر الهالكين في مثل قوله تعالى : { وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ }[الأنبياء:11]، وذكر طور شباب الأمة ودخولها معترك الحياة في مثل قوله تعالى { عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [الأعراف:129]، فإن بني إسرائيل استلفوا في الأرض حتى قووا واشتدوا، وتكونت فيهم أخلاق الشجاعة والنجدة والحمية والأنفة بعد خروجهم من التيه، وذلك هو الطور الأول طور الشباب للأمة الإسرائيلية .

وذكر الطور الثاني، وهو طور الكهولة واستكمال القول وحسن الحال ورغد العيش في قوله تعالى : {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ } [النحل:112]، وذكر الطور الثالث طور الضعف والانحلال في مثل قوله تعالى : {

[1] – عبد الحميد بن باديس ، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير والكلام الحكيم الخبير ، 1359 هـ ،ص 189

[2] – نفس المرجع ، ص 190

[3] – نفس المرجع ، ص 191

وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} [الكهف:59].

غير أن باديس يعطي تفسيرا آخر لحياة الجيل الثالث الممتدة، يختلف بصورة جزئية عن تفسير ابن خلدون الذي يرى أن عدم سقوط الحكم والأمة ناتج عن عدم وجود المطالب .

فعند ابن باديس أن هذا الطور لا يكون مصيره الهلاك بالضرورة، وإنما قد يتعرض للعذاب الشديد، ثم يتجدد شبابه وتبعث فيه الحياة مرة أخرى، ويستشهد لذلك بقوله تعالى : {وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أو مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } [الإسراء:58]، فالآية هنا صرحت بنوعين من العقاب الدنيوي: الإهلاك أو العذاب الشديد .والنوع الثاني يجعل منه ابن باديس موضوعا لشرح فكرته حول تجديد حياة الأمة وانبعاثها من جديد، فيقرر وبأسلوب علمي سنني رائع أن القرى التي قضي عليها بالهلاك والاستئصال هذه قد انتهى أمرها بالموت وفاتت عن العلاج، مثل عاد وثمود من الأمم البائدة.[1]

وهنا نلفت الانتباه إلى أن باديس لا بصفته مؤرخا في هذا الموضوع بالذات، لا بصفته مفسرا تقليديا، ينقل إلينا ما قاله الأوائل ، ولكنه تناولها بصفته مصلحا وعالما مجددا ، يهمه بالدرجة الأولى الحالة التي آلت إليها الأمة الإسلامية عموما، ووضعية المجتمع الجزائري المسلم أثناء فترة الاستعمار خصوصا . ولذلك رأيناه أثناء كلامه، يحاول أن يستنهض الهمم ويبث الوعي بين الصفوف حين يشير إلى حالة الأمة المعذبة يمكن علاجها.

1-3-2: تعريف مالك بن نبي للحضارة :

أما مالك بن نبي فيعرض لشرح الدورة التاريخية بطريقة تمتاز بالدقة والعمق في التحليل، وهو لا يختلف مع سابقيه، ولكنه يضيف عنصرا جديدا يجعله السبب الرئيسي

[1] – نفس المرجع ، ص 193

في تكوين الحضارة ، وانطلاق حركة التاريخ ، هذا العنصر هو : العقيدة الدينية ، إذ يرى أن كل حضارة لا بد من عقيدة دينية، تكون هي السبب في نموها وسيادتها . وفي ذلك يقول : " فالحضارة لا تنبعث . كما هو ملاحظ . إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها "[1].

ويشرح عوامل السقوط وأسباب الهلاك فيقرر أفول حضارة من الحضارات إنما يرجع إلى تغلب جاذبية الأرض عليها، وتخليها عن فكرتها الدينية التي كانت سبب مبعثها " ومن هنا نستطيع أن نقرر أن المدنيات الإنسانية حلقات متصلة تتشابه أطوارها مع أطوار المدنية الإسلامية والمسيحية، ثم يبدأ أفولها بتغلب جاذبية الأرض عليها، بعد أن تفقد الروح ثم العقل "[2] .

ويرى أن مراحل التطور قد اجتازها المسلمون بفكرتهم الدينية التي أنتجت الحضارة، ولكنهم للأسف ما لبثوا أن عادوا إلى الحياة البدائية بسبب انكماش تأثيرات الروح والعقل وانطلاق الغرائز الدنيا من عقالها، فيقول : " وكذلك كان المسلم، فقد بعث الدين فيه روحا محركا للحضارة فلم يلبث بعد مرحلة قضاها في الخلافات والحروب أن عاد إلى حيث هو الآن إنسانا بدائيا "[3] .

التجارب التاريخية، وحياة المجتمعات وعلى هذا فهو لا ينطلق من فراغ، لذلك رأيناه يجزم مثل سابقيه بأن " التجارب التاريخية العامة تؤكد أطوار الحضارات هذه، ولا تكاد حضارة ما تشذ عن هذه القاعدة "[4].

---

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، سوريا ، ص 75

[2] – نفس المرجع ، ص 78

[3] – نفس المرجع ، ص 79

[4] – نفس المرجع ، ص 80

إن أزمة الحضارة التي تعتبر علامة السقوط وتوحي بانتهاء دور الأمة لا تخص أمة بعينها، وإنما هي قانون عام ينطبق على كل حضارة قطعت الأطوار الثلاثة، فلا فرق بين الإسلام والحضارة المسيحية أو الحضارات الأخرى في اجتياز تلك الأطوار والمراحل ونخلص إلى القول من خلال الدراسة التحليلية لمالك بن نبي حول نشأة الحضارات وسقوطها أن :

أولا : أن الحضارة تنشأ من فكرة دينية، وليس من غيرها، وأن الفكرة الدينية هي المحرك الأساسي والدافع الرئيسي لتطور الأمم، وبناء الحضارات وانه لا حضارة بلا دين .

ومعنى ذلك أنه لكي تستمر الحضارة، ينبغي استمرارا مدها بعناصر القوة من خلال الفكرة الدينية ، و هذا العنصر لم يناقشه ابن خلدون أثناء حديثه عن الدورة التاريخية ولكنه تناول فيما يبدو أثناء كلامه عن علاقة القوة بالعصبية الدينية في موضوع آخر من المقدمة .

ثانيا : أن الإنسان يكون قبل بدء دورة الحضارة في حالة سابقة لها بمعنى له استعداد فطري وخلقي قوي، يدفعه لسلوك طريق الحضارة، فيبني ويبدع ويتحمل التضحيات والمشاق. أما في نهاية الدورة فإنه يكون متفسخا حضاريا، فيدخل في مرحلة الانحطاط الأخلاقي والروحي ولم يعد قابلا لإنجاز عمل متحضر .

ثالثا : أن الفرق بين ما كتبه مالك في موضوع وما سبقه المؤرخ ابن خلدون، هو أن هذا الأخير يمكن قبل اكتشاف منطق التاريخ في مجرى أحداثه، فكان بهذا المؤرخ الأول الذي قام بالبحث عن المنطق إن يكون أول من أتيح له يصوغ قانون الدورة التاريخية، لولا أن مصطلح عصره قد وقف به عند ناتج معين من منتجات الحضارة ونعني به الدولة، وليس عند الحضارة نفسها في حين أن مالك نقل القانون إلى جميع عناصر الحياة الاجتماعية ولم يقصره فقط على الدولة التي تعتبر عنصرا من بين عناصر الحضارة.

رابعا : على دارس حياة الأمم والشعوب في تجاربها وحضارتها من الزاويتين الشرعية والسنية والتاريخية، ألا يستغني بما كتبه أحد الأقطاب عن الاثنين الآخرين، فهما – حسبما يتراءى لي– سلسلة في حلقة يساعد بعضهما في فهم بعض ما جاء به الأخر .

فإن كان ابن خلدون يسبر أغوار التاريخ وحياة الأمم بدويها وحضرتها فإن ابن باديس يتناول كذلك مع عرضها على القرآن الكريم مرحلة ليزيدها وضوحا ونضجا، في حين أن مالكا يفعل ذلك بإبراز مايلي :

1 – دور الفكرة الدينية في بناء الحضارة وتقدم الأمة .

2– شمول الحضارة للدولة والمجتمع وتفاعلات عناصر الحياة المختلفة .

الحضارة كما يعرفها مالك بن نبي : " هي إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج المثالي الذي اختاره وعلى هذا النحو تتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل يتحكم بدوره في جميع خصائصه التي تميزه عن الثقافات الأخرى " [1]، ونلاحظ من خلال هذا التعريف أن الأفكار هي المحرك الأساسي في بناء الحضارة.

وهي النتاج الحاصل عن ضرورة حركة المجتمع، حركة شاملة، في مجال الفكر والاقتصاد، وفي رحاب التوازن الروحي والمادي، فالطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية هو ما نطلق عليه اسم الحضارة ، فالحضارة يصنعها تاريخ الإنسان بعد أن تمده الطبيعة بالطاقات، ولكن إذا أحسن تكييف هذه الطاقات، وتوجيهها نحو أهداف محددة واضحة، وهذا الأمر مرهون بمدى الانسجام

[1] – مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، عبد الصابور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، ص 16

بين النمط الفكري الذي يحكم هذه الحضارة عبر التاريخ، وبين الطاقات المتوفرة أو التي يمكن توفيرها لتنفيذ الجانب العملي.

وصناعة التاريخ عند مالك بن نبي تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث:

- تأثير عالم الأشخاص.
- تأثير عالم الأشياء.
- تأثير عالم الأفكار.[1]

لكن هذه الثلاثة لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء، من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص.. وكما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها، وهي التي تنسجم في صورة حضارة، يعد ضروريا أيضا .

2- مراحل الدورة الحضارية:

واعتبر أن أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا، ولعل أكبر أخطاء القادة أنهم يُسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية ومن هنا تبدأ الكارثة، ويخرج قطارنا عن طريقه حيث يسير خبط عشواء، وعليه فإنه لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلاً مكان أمته ومركزها، بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته .[2]

هذه الدورة التي تحدث عنها مالك بن نبي ذات ثلاثة مراحل :

[1] – نفس المرجع ، ص 23

[2] – مالك بن نبي، شروط النهضة، المرجع السابق ، ص 53.

المرحلة الأولى : وفيها يعتنق إنسان ما قبل الحضارة، الفكرة الدينية ويتفاعل معها فينهض.

المرحلة الثانية : تبلغ فيها الحضارة مداها، وفيها تخبو الروح قليلاً ويسيطر العقل وتبدأ الغرائز في الظهور.

المرحلة الثالثة : وهي مرحلة الغريزة حيث تظهر على حساب الروح والعقل وتنحدر الحضارة نحو الأفول .[1]

وهذا ما يمثله المنحنى البياني للقيم النفسية الاجتماعية ، صورة لتغيرات هذه القيم عبر المراحل الحضارية المتنوعة في الشكل الآتي :

الشكل رقــم (1)

يبين الدورة الحضارية

عنـــد مالك بن نبي

[1] - نفس المرجع ، ص 74

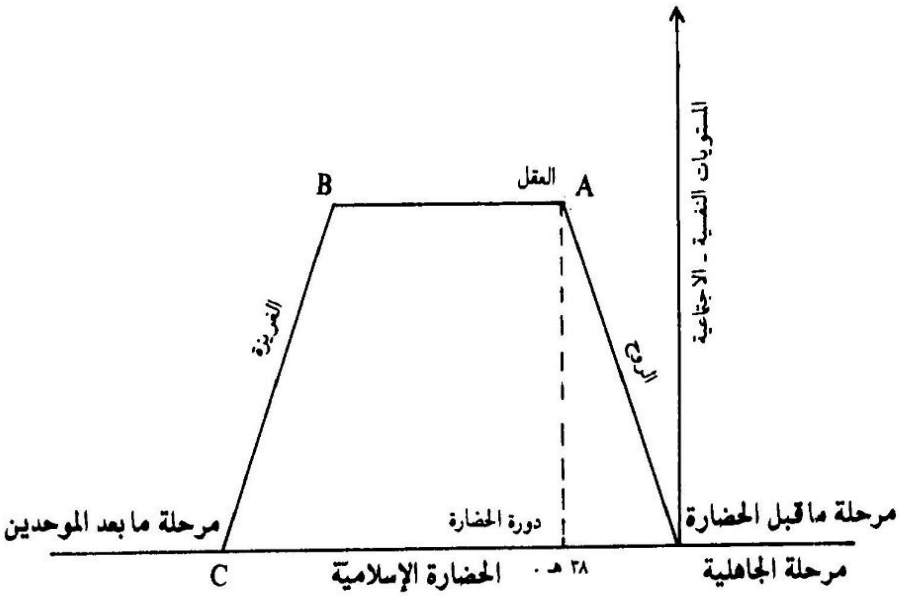

وبناءً عليه حدد مالك بن نبي مشكلة العالم الإسلامي أنه يعيش فترة ما قبل الحضارة وتصوّر أن "مجتمع ما بعد التحضر ليس مجرد مجتمع لا يتحرك من مكانه وإنما هو مجتمع ينتكس في خط سيره، أي يسير إلى الخلف بعد أن انحرف بعيداً عن طريق حضارته وانقطعت صلته بها. فالمجتمع الذي تعيش فيه عقول خاوية أو محشوة بأفكار ميتة وضمائر خائرة ومجموعة من الروابط المتهدمة لا يستطيع أن يستمر في سيره، وبالنسبة للمجتمع الإسلامي فإنه يكون عندئذ قد بدأ في مرحلة ما بعد الموحدين أي ما بعد التحضر" [1] ، وإذا أدرك المسلم اليوم

أن أوربا تعيش المرحلة الثالثة من دورة حضارتها (مرحلة الانحدار والسقوط) وهي الآن في طريق التحلل والزوال عرف أنه لا سبيل لتقليدها أو الاقتباس منها، فميتٌ لن يحيي ميتاً.

[1] – مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، ط1، 1988، ص 68.

2 – 1 :المرحلة الأولى مرحلة الروح :

وهي المرحلة الأولى من التحضر المميزة باندفاع روحي قوي ، وحسب رأي"مالك بن نبي" كل التطورات الحاصلة في المجتمع، سواء كانت أزمات مفضية إلى تقهقر ، أم قفزات مفضية إلى تقدم . فهو في هذا الصدد يقول :" والحق أن تطور الإنسانية هو ما يحدث من نمو في مشاعرها الدينية المسجلة في واقع الأحداث الاجتماعية ، تلك التي تطبع حياة الإنسان وعمله على وجه الأرض "[1] .

إن مرحلة الروح تكمن فيما يسميه مالك بن نبي بسلم القيم النفسية الزمنية ، التي تميز مستوي حضارة ما في وقت معين كالإسلام أو المسيحية ، والفرد الذي يشكل بالنسبة إلى هذا الإيمان السند المحسوس ، وهو هنا المسلم أو المسيحي ... وذلك ان الإيمان عندما يتخذ دوره من الناحية النفسية والاجتماعية ، بحيث ينتقل بالإنسان من حاله الطبيعي أو الفطري بجميع غرائزه المعروفة إلى حال الإنسان المتحرر جزئيا من قانون الطبيعة ، وذلك من خلال عملية اشتراط يعبر عنها علم النفس فرويد بالكبت التي تنظم ولا تلغي غرائزه .[2]

فهو في هذه الحالة يصبح يمارس حياته وفق قانون الروح ، الذي ينظم غرائزه ويعرفه مسوغات وجوده ، فينطلق بذلك بمعية الأفراد الآخرين بالقيام بأول فعل تاريخي وهو تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية اللازمة لأداء العمل الاجتماعي المشترك ،وتكون أفعاله ونشاطاته المختلفة نابعة من قدرته وإرادته المعبرة عن التوتر ، الذي يعتريه والذي يحوله إلى طاقة وفعالية باعثة للحضارة

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ،المرجع السابق، ص 66

[2] – مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العام الإسلامي ، المرجع السابق ، ص 70

وهكذا يغدو الدور الاجتماعي للدين مرتكزا أساسا حول تشكيل مجموعة قيم تجعل من " الإنسان العضوي البيولوجي إلى وحدة اجتماعية ، ومن الوقت الذي هو ليس إلا عبارة عن مدة زمنية إلى وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات العمل ، ومن التراب الذي يقدم بصورة فردية غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط إلى مجالا مجهزا ومكيفا تكيفا فنيا ، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة تبعا لظروف عملية الإنتاج "[1]

إنها باختصار الفعالية التي يحدثها الجانب الروحي المتمثل في مختلف نشاطات الفرد في مجتمعه من اجل فعالية باعثة للحضارة .

2 – 2 : المرحلة الثانية مرحلة العقل :

إن كلمة العقل هنا جاءت حسب المحتوى الذي ضمنه إياها "مالك بن نبي " مرادفة للاجتهادات الشخصية والمتحررة من سلطة الروح المبدأ الأخلاقي والتي تسمح ببداية ظهور الحسابات الشخصية والمصلحية وبروز الأنانية مما يمزق جوانب من خيوط شبكة العلاقات الاجتماعية الكبيرة ، اما العقل كجهاز للإدراك والاستبصار وتحقيق المعرفة ، فإنه معمول به في المرحلة السابقة ، على أساس أن تطور المجتمع حضاريا محكوم بافتتاح أبواب النشاط العقلي فيه . وما قدمه العلماء ، على سبيل المثال ، إطار الحضارة الإسلامية أو المسيحية من إنتاجيات مهمة في مجالات عديدة هو ، في الواقع ،نتاج الهندسة الإسلامية والمسيحية للعقل ".[2]

وهكذا يمكن القول ، تبعا لما تقدم ، عن مرحلة العقل تمثل بالنسبة لمالك بن نبي مرحلة تحلل بطيء وجزئي للمجتمع ، ونقص في الفعالية ، ناجم عن انكماش في تأثير

[1] – نفس المرجع ، ص 71

[2] – نفس المرجع ، ص 73

المبدأ الروح في حياة المجتمع بصفة عامة ونمو في العقل ، مما يؤدي ذلك بصفة آلية إلى توقفه عن الصعود الحضاري.

إن هذا ما وقع بالضبط حسب مالك بن نبي بالنسبة للحضارتين المسيحية والإسلامية مثلا ، فالحضارة المسيحية التي بدأت مرحلتها الأولى مرحلة الروح بعهد شرلمان متميزة بالمبدأ الأخلاقي ، تخلت عنه في المرحلة التالية المتزامنة مع عهد النهضة ، الذي طبع بطابع ديكارتي أي بهيمنة العقل ، والشيء نفسه بالنسبة للحضارة الإسلامية حيث تخلت عن المبدأ الذي كان يسود حضارتها الأولى ، التي تبدأ من غار حيراء إلى نهاية عهد الخلافة الراشدة ، لتدخل مرحلة جديدة في حياتها ،يسودها العقل وذلك يبدو جليا في حكم المماليك العصر الأموي والعصر العباسي الأول اتجه الأفراد إلى تقديس الأشخاص مهما كان بعدهم أو قربهم من المبدأ،مما نتج عنه بروز مذاهب واتجاهات سياسية وفقهية متصارعة ، أثرت بشكل نسبي على شبكة العلاقات الاجتماعية ، بحيث اعترى التمزق بعض الجوانب لعدم سيادة المبدأ سيادة مطلقة .

حسب مالك بن نبي بأنه تظل هذه السيادة مواصلة نقصانها منذ ان دخلت الحضارة مرحلة العقل ،لان الغرائز في هذه المرحلة ، تجد المجال مفتوحا للتحرر شيئا فشيئا من القواعد والضوابط التي رسمها المبدأ الأخلاقي / الروح . وعندما يبلغ هذا التحرر تمامه تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل الحضارة مرحلة الغريزة.

2 – 3: المرحلة الثالثة مرحلة الغريزة:

وهي مرحلة تنتهي فيها الوظيفة الاجتماعية للمبدأ الأخلاقي الروح، بحيث يصبح هذا المبدأ هنا عاجزا عن القيام بمهمته تماما في مجتمع منحل ، استعادت الطبيعة فيه بجميع الغرائز التي تتضمنها غلبتها .

وعلى الرغم مما قد يبدو لبعض المفكرين من ان المجتمع في هذه المرحلة كان ميسورا في ظاهره ، ناميا ، غير أن شبكة علاقاته هي في الواقع متفككة ، ويتجلى ذلك في ما تناوله ابن نبي" فيما يصيب الأنـا عند الفرد من تضخم ينتهي إلى تحلل البناء الاجتماعي المتكامل لصالح الفردية ،عندما يختفي الشخص أو عندما يسترد الفرد استقلاله وسلطته داخل البناء الاجتماعي ... فالعلاقات الاجتماعية تكون غير وظيفية عندما تصاب الذوات بالتضخم ، فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبا أو مستحيلا ، اذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات ، بل للعثور على أدلة و براهين " ويظهر ذلك مثلا في السياسات التي يتبناها قادة بعض دول العالم الإسلامي وافريقيا واسيا ، في المجال الاقتصادي بحيث يحاولون " تطبيق حلول فنية ، يقترحها بعض المختصين الأوروبيين ، على الرغم من أن هذه الحلول قد تكون عديمة الجدوى ، لأنها لا تتفق مع عناصر الأنا فيها (المعادلة الاجتماعية و التركيبة النفسية والذهنية الخاصة بالمجتمع) " [1].

ومن الطبيعي أيضا أن يمتد اثر الاضطراب والتفكك في شبكة العلاقات الاجتماعية في هذه المرحلة إلى تكاليف الحياة اليومية للأفراد إذ أن التزايد الكبير والمستمر مثلا لسعر الخبز أو البطاطا أو الطماطم ، من مدة زمنية لأخرى ، لا يمكن إرجاعه إلى مشكلات تتعلق أساسا بندرة المنتوج في السوق نظرا لعدم كفاية الإنتاج ، وهذا بسبب عدم خصوبة الأرض .

إلا أن هناك دول لها أراضي خصبة جدا ، مثلا أراضي العراق (فيما بين الدجلة والفرات)، والجزائر (سهول متيجة والعبادلة...) ، والسودان ... ولكنها دول تواجه المشكلة نفسها (ارتفاع الأسعار) .

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، المرجع السابق ، ص 70

" إذا كان الإنتاج قد تغير في هذه الدول ، وأصبح غير كاف مما انجر عنه من ارتفاع كبير في الأسعار ، فما ذلك إلا لأسباب اجتماعية تتصل بتنسيق الأعمال الزراعية والتوزيع ، أي لاضطراب في شبكة العلاقات " [1]

إن هذه المرحلة تتميز بسيطرة فكرة الشيء ، بحيث يتحول الهدف من النشاط الاجتماعي إلى ما يعرف ب " الكم والعدد " .

3 – العناصر الثلاثة المكونة للحضارة ودور الدين:

لقد ناقش مالك بن نبي فلسفة الحضارة وفي مقدمتهم أرنوند توينبي في فكرة نشوء الحضارات ، ووصل بنا إلى نظريته التي أصبحت مشهورة ، وهي أن الحضارة لا تستورد ، وإنما هي عبارة عن إبداع ، وليس تكديسا ولا جمعا لركام من الأشياء، وإنما هي تركيب للعناصر الثلاث إنسان تراب ، وقت . لقد وضع مالك بن نبي معادلته الشهيرة التي بيَّن فيها رأسمال الحضارة_ أيّ حضارة_ فمعادلته هي :

الحضارة = إنسان + تراب + وقت [2]

وأنه لا يتم التفاعل بين العناصر الثلاثة إلا بتدخل مركِّب معيَّن هو (الفكرة الدينية) وهي التي رافقت تركيب الحضارة عبر التاريخ، ويؤكد على أهمية الدين في مبعث الحضارات فيقول" الحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية... فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعا ومنهاجاً "[3] دور الدين إذاً في الحضارة هو دور العامل المركب لعناصرها، واختفاء هذا الدور يعني تحلل هذه العناصر إلى وضع غير مركب أي تحلل الحضارة ". الدين في رأي بن نبي إذاً هو

[1] – مالك بن نبي ، المسلم في عالم الاقتصاد ، المرجع السابق ، 53 .

[2] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص 65

[3] – مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، دار الفكر ، ط 1 ، دمشق ، 1986، ص 66.

العامل الذي تقوم الحضارة به وتتحلل بصورة مضطردة كلما ضعفت فاعليته ،وهذه العناصر لا تمارس مفعولها ضمن حالة تشتتيه ، ولكن ضمن تركيب متآلف يحقق بواسطتها جميعا إرادة وقدرة المجتمع المتحضر ، ومنه تصبح المعادلة كالتالي :

الحضارة = (إنسان + تراب + وقت)* العامل الديني [1]

وانطلاقا من هذه المعادلة يتضح لنا أن المنتج الحضاري لأي شعب من الشعوب هو المادة الأولى التي يقوم عليها استمراره وأمنه القومي ، وبقدر ما يملك من طاقة بشرية فعالة وإرادة طبيعية للبقاء وقدرة على تفاعل المنتج الحضاري وامتزاجه بعقيدة راسخة تضمن تماسكه ووفرة عطائه ، وبقدر ما يكون منتجه الحضاري أكثر وفرة ، ويؤدي إلى البقاء و التماسك والتماسك وسينعكس في تحقيق الأمن والاستقرار ، وبذلك يتحقق الاستثمار ويبنى العمران ويعمر .

ويرى بن نبي إن التحدي الذي يواجه الأمة اليوم ذو جانبين :

- الوعي بالأفكار السابقة ، خاصة بان استزاد المنتج الحضاري لا ينتج حضارة .

- العمل على الاستفادة من المنتجات الحضارية العربية ، وذلك ب :

بناء الإنسان الواعي الحامل لهمومه .

توفير الشروط الملائمة لاستغلال الأراضي والاستفادة منها

3 استثمار الزمن .

و يبقى المحرك للعناصر الثلاثة هو العامل الديني .[2]

[1] – المرجع نفسه ، ص 67

[2] – نفس المرجع ، ص 68

3-1 : الإنسان :

إن المشروع الإصلاحي يبدأ بتغيير الإنسان، ثم بتعليمه الانخراط في الجماعة ثم بالتنظيم فالنقد البناء ،وتبدأ عملية التطور من الإنسان لأنه المخلوق الوحيد القادر على قيادة حركة البناء، وتحقيق قفزات نوعية ، تمهيداً لظهور الحضارة . أما المادة فمهما يكن من أمرها تكديساً وزيادة ، فإنها تبقى تجميع كمي لا يعطي معنى كيفياً نوعياً ، إلا بسلامة استخدام الإنسان له.[1]

فالإنسان هو الهدف وهو نقطة البدء في التغيير والبناء، ومهما جرت محاولات تحديثية بوساطة الاستعارة، أو الشراء للمصنوعات ومنتجات التقنية، فإن هذه المحاولات ستكون عقيمة، طالما أنها لم تبدأ من حيث يجب، فالحل الوحيد منوط بتكوين الفرد الحامل لرسالته في التاريخ، والغني بأفكاره على حساب أشيائه.[2]

إن العلوم الأخلاقية والاجتماعية والنفسية تعد اليوم أكثر ضرورة من العلوم المادية فهذه تعتبر خطراً في مجتمع مازال الناس يجهلون فيه حقيقة أنفسهم أو يتجاهلونها ومعرفة إنسان الحضارة وإعداده، أشق كثيراً من صنع محرك أو تقنية متطورة ، ومما يؤسف له إن حملة الشهادات العليا في هذه الاختصاصات النظرية هم الأكثر عدداً في البلدان المتخلفة لكنهم لم يكونوا إلا حملة أوراق يذكر فيها اختصاصهم النظري، فصاروا عبئاً ثقيلاً على مسيرة التنمية والإصلاح، فهم القادة في المجتمعات المتخلفة على الرغم من عجزهم عن حل أبسط المشكلات بطريقة علمية عملية، وإلا لما تخلف مشروع

[1] – مالك بن نبي ، القضايا الكبرى ، دار الفكر ، سوريا ، ص 53

[2] – نفس المرجع ، ص 54

النهضة حتى الوقت الحاضر، ونحن بحاجة إلى دروس في منهجية العمل في سائر مستويات عملنا.[1]

فلتبدأ المنهجية أولا في مستوى الحديث المجرد، لأن كل عمل اجتماعي يقتضي تبادل أفكار بين عدد من الأشخاص.إن الحوار هو أبسط صورة لتبادل الأفكار، وهو بذلك المرحلة التمهيدية البسيطة لكل عمل مشترك فقواعد الحديث إذن لا تخص حسن الآداب فقط ، بل هي جزء رئيسي من تقنية العمل. [2]

فالقضية إذن لا تخص قواعد الحديث وحسن السلوك في المنتديات والمؤتمرات والصالونات والمقاهي فحسب ، بل تخص مباشرة تقنية العمل من زاوية الفعالية ، فحيث لا يكون الحديث لمجرد التسلية ، يجب أن يخضع لقواعد العمل، الذي ليس في بداية ومرحلة تحضيره، سوى مشروع في محتوى بعض الكلمات وبعض الأفكار، وفي هذا المستوى، يتداخل الجانب الأخلاقي والجانب المنطقي ليكونا معاً العمل الفعال أو العمل التافه وأظن أننا لا نزال كأمة في المستوى الثاني، فليس من الضروري – ولا من الممكن – أن يكون لمجتمع فقير، المليارات من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدهر أن ينقص من قيمته شيئاً، الرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه : الإنسان، والتراب ،والوقت ، بين الفرد الحامل لرسالته في التاريخ، والغني بأفكاره على حساب أشيائه.[3]

فحين ينظم الإنسان شبكة علاقاته الاجتماعية بوحي الفكرة في انبثاقها، فإنه يتحرك في مسيرته عبر عالم الأشخاص وعالم الأشياء المحيطة به فيتخذ العالم الثقافي إطاره في إنجاز هذه المسيرة ويأخذ طابعه تبعا للعلاقة بين العناصر الثلاثة المتحركة: الأشياء

[1] – نفس المرجع ، ص 56

[2] – نفس المرجع ، ص 57

[3] – مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، المرجع السابق ، ص 100

،الأشخاص ،الأفكار . فإذا كانت الأمة تدور في عالم الأفكار ، فإنها في أوج حضارتها، وإذا كانت تدور في عالم الأشخاص وعالم الأشياء فهي في حالة الاحتضار ونهاية عمرها الحضاري، ويصبح ترابها رخيصا ومباحا ، ووقتها لا قيمة لساعاته ،أو أيامه وأسابيعه بل وشهوره و سنينه، ولا خلاص لمجتمع من تخلفه إلا إذا كان عالم أشياءه وعالم أشخاصه يدور في عالم الأفكار ، فالثورة حين تخشى أخطاءها ليست بثورة، وإن أي ثورة، لن تستطيع تغيير الإنسان إن لم تكن لها قاعدة أخلاقية قوية . [1]

3- 2 : التراب :

وهو العنصر الثاني الذي يشكل الحضارة مع الإنسان والوقت في فكر مالك ابن نبي .وحيث يتكلم عن التراب لا يبحث في خصائصه وطبيعته ، ولكن يتكلم عن التراب من حيث قيمته الاجتماعية ، وهذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكيه ، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة، وحضارتها متقدمة، يكون التراب غالي القيمة ، وحيث تكون الأمة متخلفة – كما هو الحال اليوم ، يكون التراب على قدرها من الانحطاط ، وذلك بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه ، فها هي رمال الصحراء تغزو بشراسة الحقول الخضراء على امتداد الوطن العربي . فتترك أهلها يتامى بين يدي الصحراء المقفرة ،وبديهي أنه لا حل لهذه الأزمة غير الشجرة ، لكن إذا كان الإنسان الزارع لهذه الشجرة أو المؤتمن على رعايتها ، يعيش حالة تصحر داخلي ، فلا أمل من رؤية اللون الأخضر مرة ثانية تحت نظر ويد إنسان كهذا. [2]

3-3 :الوقت :

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، مرجع سابق ، ص 60

[2] – مرسي لحرش ، إستراتيجية استئناف البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي ، المطبعة الجهوية قسنطينة ،الجزائر ، 2006، ص 131.

وهو العنصر الثالث في تكوين الحضارة ،إن الزمن نهر قديم يعبر العالم ، ويروي في أربع وعشرين ساعة الرقعة التي يعيش فيها كل شعب؛ والحقل الذي يعمل به وهذه الساعات التي تصبح تاريخاً هنا و هناك ؛ قد تصير عدماً إذا مرت فوق رؤوس لا تسمع خريرها ، وإذا قسنا الزمن بمقياس الساعات التائهة فالقرون لا تساوي شيئاً، ،ولكنه نهر صامت حتى إننا ننساه أحياناً ، وتنسى الحضارات في ساعات الغفلة أو نشوة الحظ قيمته التي لا تعوض، وحينما لا يكون الوقت من أجل الإثراء أو تحصيل النعم الفانية ، أي حينما يكون ضرورياً للمحافظة على البقاء ، أو لتحقيق الخلود والانتصار على الأخطار ، يسمع الناس فجأة صوت الساعات الهاربة ، ويدركون قيمتها التي لا تعوض ، ففي هذه الساعات لا تهم الناس الثروة أو السعادة أو الألم ، وإنما الساعات نفسها . فيتحدثون حينئذ عن ساعات العمل ، فهي العملة الوحيدة المصقلة التي لا تبطل، ولا تسترد إذا ضاعت ، إن العملة الذهبية يمكن أن تضيع ، وأن يجدها المرء بعد ضياعها ، ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة ، ولا أن تستعيدها إذا مضت [1].

4 – العوالم الثلاثة للحضارة :

4 – 1 : عالم الأشخاص :

وفي معالجة هذا المحور ينطلق مالك بن نبي من زاويتين مختلفتين الأولى تتعلق بموقع الإنسان ، وعلاقته بمجتمعه ، والثانية تتعلق بالإنسان ذاته . فالفلسفة التي يقوم عليها هذا المحور تنطلق من صرورة إيجاد مناخ اجتماعي متلاحم ، ومنسجم ضمن

[1] – نفس المرجع ، ص 133.

شبكة علاقات قائمة على التفاهم والرغبة في مساعدة الأخر ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال تحقيق ما نصبوا إليه في ظل مجتمع يسوده التفكك والانحلال . [1]

يوجهنا ابن نبي في هذا الصياغ إلى الفكرة التي انطلق منها أساسا لتجسيد أي فعل حضاري ، اي الفكرة الدينية فهي بوسعها القضاء على الشوائب التي تساهم في تفتيت المجتمع ، وتثبيت عامل التواصل ، والانسجام ، والتواؤم الخلاق وهنا يبرز الدور المهم لعنصر الدين ،" فلا يمكن تصور انطلاقة ما ، أو انبثاق حضارة من وسط اجتماعي متهالك ، ومفكك يحمل بذور تداعيه حتى قبل أن يولد ، ويضرب لنا مثلا في هذا الإطار بما فعله الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذي وضع نصب عينيه تحقيق التواصل ، والتراحم ، والتآخي بين المؤمنين كنواة أولى لمجتمع صالح ، ناجح " كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا " – حديث شريف – فالتجربة أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أنّ من أسباب تلاشي كثير من الحضارات ، غياب الانسجام بين مكوناتها المجتمعاتية عقيدة ، وتقليدا ، ونمط حياة ، وهو ما يجعلنا نقف وقفة تقدير لما وصل إليه مفكرنا في هذا المحور ، فالمعركة كل المعركة هي البناء المجتمعي القائم على التكامل ، والتفاعل الايجابي ، وكل بناء يلغي من حساباته هذا العامل ، محكوم عليه بالتداعي والانهيار. وهاهو ابن نبي يذكرنا بالحديث الشريف : " توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعت الأكلة على قصعتها ، قيل أومن قلة يومئذ يا رسول الله ؟ قال : لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل "

فالمشكلة أساسا ليست في الكثرة بقدر ما هي قوة اللحمة والرابطة التي تعصم المجتمع من الانحدار المفضي إلى الهلاك ، لقد كان هذا الحديث ضربا من التنبؤ والاستحضار استحضار صورة العالم الإسلامي بعد أن تتمزق شبكة الاجتماعية ، أي عندما لا يعود مجتمعنا بل مجرد تجمعات لا هدف لها كغثاء السيل العلاقات.

[1] – محمد شاويش ، مالك بن نبي وشروط النهضة ، مجلة التبيين، العدد 19 ، ص 91.

فالفرد الذي تقوم عليه الحضارة لا ينبغي أن يكون فردانيا في تفكيره ، وفي تكوينه وفلسفته ، و إنما يجب أن يدرك تمام الإدراك انه ضمن نسيج اجتماعي قاصم على التكامل ، و التفاعل ، والإنتاج فالشمولية في مفهومها الايجابي هي الرصيد الذي يستطيع المجتمع من خلاله تأكيد ،وتعزيز قدراته العلمية ، والعملية والإنتاجية التي تصب في متون التفعيل الحضاري المنسجم .أما الجانب الثاني فهو ذلك المتعلق بالفرد ذاته ككيان له مميزاته ، وقدراته ومعتقداته ،وكوامنه ، وهذا العنصر أو الجانب هو الذي ينفذ من خلال إبراز دوره الحقيقي والفاعل ، والثقافة هي المحيط الذي يصوغ كيان الفرد ويقدم له الروابط الاجتماعية [1].

كما يدخل في هذا التركيب مجموعة من العوامل النفسية ، والبيولوجية التي تبحث عن فضاء يحقق له ما يرغب في تفريغه أو إفضائه ويعطي لها هامشا علميا محفزا ومنشطا كغطاء علمي مشروع بما يتوافق والفلسفة المعتمدة ، والموجهة لمسار البناء الحضاري الذي يقوم عليه نظام المجتمع كوحدة إنتاجية لها خاصيتها . ولقد وقف ابن نبي مطولا عند هذا المحور ، وكرس له كل اهتماماته لان البداية تنطلق من هنا ، فالمجتمع المبدع الخلاق يقوم على فلسفة سد الثغرات المؤدية إلى الهاوية ، نجد النواة الأولى للمجتمع الإسلامي المبني على التراحم ، والانسجام والتكافل ، حيث كان من نتاج ذلك قيام حضارته الكبرى في ظرف زمني قصير بعد مرحلة وهن وضعف .

فالأمثلة كثيرة أهمها ما عرفته الدولة العباسية أيام انحطاطها من تفكك ، وتناحر، وشيوع للجريمة والفاحشة ، وغياب العدل ، وهو ما عرفته الدولة العثمانية في أيامها الأخيرة ، لان فلسفة الكيان الاجتماعي تلاشت ، وأدت إلى تدهور العلاقات ، وغياب الانسجام و الشعور بالمسؤولية الاجتماعية فكان من الطبيعي اندثار هذه الدولة في

[1] – نفس المرجع ، ص 83

غياب وتراجع الوازع الديني الذي كثيرا ما أسهم في تجديد ، وبعث هذه الأنسجة الاجتماعية مرتبطة ببعضها البعض ، والنتيجة في النهاية واحدة .

3-2 : عالم الأفكار :

وعالج بن نبي هذا المحور من زاويتين ، احدهما مرتبط بالمحور السابق الذي يدخل في تركيب شخصية الفرد الذي يعتبر مفتاح الحضارة تمثل البواعث الدينية التي تعتبر مرجعا لا يمكن الحياد عنه ، أو اقفاله ، أما الثاني فهو الداخل في القدرة على الاكتساب ، ومدى ما تقدمه الفلسفات العلمية ، والثقافية من محفزات للطاقة الاستيعابية للفرد – المشروع – يدخل في هذا المنحنى أيضا المكتسبات اللصيقة بمستوى الفرد ، والمميزة له ، غير أن الثقافة ليست هي الخبرات العلمية دائما ، فهي تختلف من مجتمع إلى مجتمع ، أما العلوم والخبرات العلمية فان لها نقاطا ، وأسسا ، ونظريات مشتركة ، وان اختلفت وسيلة ، أو طريقة اكتسابها من منهج إلى أخر إلا أن التجربة العلمية في الحالتين لها نفس البعد ، والنتيجة .[1]

فالإقلاع النموذجي يكون من الداخل بدءا بذاتنا ، وتركيباتنا النفسية و الشعورية التي ينبغي أن تتغير ، وتحيد عن منحناها السلبي نحو الايجابية المكملة ، والمتممة لأجزائها بغية تجسيد الكل ، انّ الشعور السائد بالإحباط المولد لتفاسير ، وأراء تصب كلها في نطاق الخمول ، و البحث عن الرجل المنتظر ، أو النظام الاقتصادي المنشود ، أو السياسة المطلوبة ، كلها مجرد نزوات لا تقدم ولا تؤخر ببساطة لان المشكلة الأساسية فينا ، لا في فلسفة الأنظمة و النظريات الاقتصادية ، ومادام المشكل كذلك ، فلن نصل ولو نهجنا كل المناهج الاقتصادية ، والسياسية المتألقة في العالم ، بل إننا نضيع وقتنا سفها ، وكذبا على أنفسنا ، وذواتنا الواهمة ، المتشبثة بأولوية من فراغ ، يقول محمد

[1] – مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ،المرجع السابق ، ص65

شاويش : " ومن هنا فان مجتمعنا بحاجة إلى ثورة نهضوية سليمة داخلية تأتي من أسفل لا من أعلى ، وهي بلا شك ان قامت ستجبر البناء الفوقي على ان يتماثل معها وهذا معنى الحديث الشريف : " كما تكونوا يولى عليكم " .[1]

فمالك بن نبي ألح إلحاحا شديدا على ان نقطة البدء في كل مسار لها أبعاد حضارية تنشأ من مدى وعي الإنسان لرسالته ، ودوره في الكيان الاجتماعي الذي يحيط به في نسق متفاعل بعيدا عن الانعزال ، أو الفردانية المفرغة لإنسان من خاصيته الفاعلة ، وقيمه الاجتماعية المبنية على ثقافة ناجعة ،هنا يضيف ابن نبي فكرة أخرى تتمثل في ضرورة أن نكيف قدراتنا على تقنية إيجاد البدائل والحلول بدلا من حصرها في زاوية واحدة تفضي إلى صدمة لسنا بمنأى عنها ، ففلسفة " الرجل الوحيد " التي تبنتها الكثير من الأنظمة العربية كانت وابلا ، وشرأ ، فبمجرد ذهاب أو وفاة هذا الواحد تتهاوى الأمّة ، وكان هذا الفرد ذاته هو المشروع الحضاري بعينه . والمؤكد هو إن استمرار الفكرة ، وفعاليتها وهو المؤشر الحقيقي والوحيد على مدى قوة ، وامتداد هذه الحضارة ، أو تلك ، وليس من العلمية ربط مصير امة ، أو مجتمع بشخص ، بمجرد نهايته المحتومة ينفرط العقد ، ويتهاوى البناء ، لقد ربط مالك بن نبي بين هذين الوجهتين على فرضية التكامل ، غير أن فلسفة الفكرة قائمة ومستمرة كشرط لبروزها ، فهي مسار لا منتهي ومتجدد في نفس الوقت بما يخدم التحولات الكبرى و المعطيات الراهنة التي يتفاعل معها المشروع الحضاري ، ويقتضي المشروع النهضوي من مرونة واكتساب للمبدأ الأساسي كفكرة ، وكمنطق من قبل الفرد ، كالمبادئ والقيم والأفكار التي يجب أن يكون الفرد وسيلة لتكريسها ، بعد استيعابها منتجا ، لا استعابا جاهزا ، فالجاهزية لا تخدم المبدأ ، ولا تتسع لاستخدام العقل ، وبالتالي تهميش الخلق والإبداع ، فالأصل ليس الحل ، انما التقنية وطريقة التحليل وفق منهج سليم ، وأسس علمية مدروسة ، مما يدعونا إلى

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، المرجع السابق ،ص 158

التركيز على أهمية المكتسبات الثقافية التي تنمي هذه الصفات ، وتوفر لها المناخ المناسب الذي يربط بين أجزاء التركيبة السوسيو–ثقافية للإنسان المتجدد ،لأن " دور الثقافة إنما يتمثل على وجه الدقة في خلق هذه اللحمة الاجتماعية أولا ، وبالذات ، فهي الاتون الذي تصهر فيه كل العناصر الأساسية الداخلة في تركيبة المشروع الحضاري الذي منطلقه ، ومبدؤه الفرد في نطاق الجماعة . وتحتل الثقافة مرتبة رئيسية في تكوين الفرد وبناء شخصيته ، فهي الرحم الذي تنمو فيه أفكاره ، وتطلعاته ، والذي تتحدد فيه قيمه وأهدافه .. هي التي تحقق التوازن في عالم الإنسان الداخلي ، وهي التي تعلمه كيف ينخرط في الجماعة ليؤدي دوره من خلالها بشكل متكامل دون أفضليات ، فالثقافة تنمي الجانب المعنوي في الإنسان والمجتمع بمستوى متوازن كما ينمو الكائن الحي بكل أعضائه في وقت واحد "[1].

وعموما فان التركيبة الفكرية للفرد الواعي ينبغي أن تحقق الانسجام بين ما اكتسبه الفرد من قيم ، ومبادئ ، وعادات ، وبين ما يمكن أن يكتسبه من خيرات ، ومعارف مع إيجاد الفضاء الذي لا يتناقض مع هذه المعطيات حتى لا نخلق ذريعة للفشل ، ولا يحدث الانفصام المفضي إلى تلاشي الأهداف المرسومة مسبقا ، وهو ما يثبته واقع الأمة العربية اليوم .

3–3 :عالم الأشياء :

لقد وصل المشهد الحضاري في مرحلة تكوين عالم الأشياء إلى أخر مقتضيات الاقلاع والنهضة – نظر بن نبي – ولابد عندها من منطق عملي رأس ماله الفاعلية اللازمة ، والمفروضة في نفس الوقت " اننا نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من اللافاعلية في أعمالنا إذ يذهب جزء كبير منها في العبث ، والمحاولات الهازلة . وإذا ما

[1] – مالك بن نبي ، تاملات ، دار الفكر ، دمشق ، 1979، ص 221.

أردنا حصرا القضية ، فإننا نرى سببها الأصيل في اعتقادنا ، الضابط الذي يربط بين العمل ، وهدفه ، وبين سياسة ، ووسائلها ، بين الثقافة ، ومثلها ، بين فكرة وتحقيقها ، فسياستنا تجهل وسائلها وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا "[1] .

فالحضارة تكوين وبناء وليست تكديسا كما يقول ابن نبي " ان علينا أن ندرك بان تكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة ، فالحضارة هي التي تكون منتجاتها ، ليست منتجات هي التي تكون النتائج ، وليس العكس ، فالغلط منطقي ، ثم هو تاريخي لأننا لو حاولنا هذه المحاولة ، فإننا سنبقى ألف سنة ، ونحن نكدس، ثم لا نخرج بشيء "[2].

ان الثقافة المدعمة للإنسان المكيف مع مقتضيات المرحلة ،يفترض أن تكون مصبوغة بصبغة المجتمع الذي تنطلق منه ، ومطبوعة بشخصيته حتى لا تنتج ما لا يتلاءم والخاصية العامة للمجتمع ، أو المحيط الذي نعيش فيه فالشخصية الإنتاجية مرادف كمي لمقتضيات النوعية ، والمنطق العملي ، وهذا يجعل فعل التكوين ، الإنتاج ، الإبداع الصناعي أمرا ممكنا ،ومتوقعا في أي حقبة من حقبات البناء ، والممارسة الإنتاجية المنبثقة عن مرجعيات لها أصولها ، ورصيدها ، وقواعدها التي تقوم عليها ، كمبدأ ثابت لا يتغير ، ولا يحيد ، ولا يتأثر بما تحمله الحضارات الأخرى ، بل يؤثر فيها إذا ما تمسك الفرد المنتج بخاصيته ، وأسلوبه في العمل ، وفلسفته في البناء ضمن الحركية العامة لحضارته ، فالحضارة جوهر ممتد وفضاء عملي لتكريس ، وترجمة الانسجام الحاصل بين مجموعة الأفراد، والمعطيات تتحرك من منظور شامل ومستتب وحدة ، وهوية ، وأفاقا وتواصلا .[3]

---

[1] – نفس المرجع ، ص 125

[2] – نفس المرجع ، ص 162

[3] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، المرجع السابق ص 158.

لقد وضع مالك بن نبي لهذا المشروع الضخم محاور ثلاثة يكتمل بتفاعلها البناء ، ويتجسد حلم الأمّة في إستعادة الدور العالمي لهذه الحضارة التي لا تزال تمثل المرجعية لكثير من الدول بما فيها الدول الغربية ، فلكي نصنع التاريخ ، ونمارس حقا المشروع في التحضر، لابد أن نقف عند كل محور من المحاور ونعطيه ما يقتضيه من متطلبات وظروف ، وفق مناهج علمية مدروسة مؤكدة النتائج ، فالنجاعة مطلوبة ، لأن المشروع مشروع أمّة بكاملها ، وليس مشروع فرد ، أو جماعة ما فقط ، لذلك كان لزما أن تحدد الأهداف وتدرس بعمق ، لتتطابق النتائج مع المقدمات ، وإلا كان عملنا ناقصا مشوها محدود الفكرة ، والمنهج والمسار .

وصناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث :

- تأثير عالم الأشخاص .
- تأثير عالم الأفكار .
- تأثير عالم الأشياء .

لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة ، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إديولوجية من عالم الأفكار يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص . وكما أنّ وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة ، فإنّ توافق هذه الوحدة مع الغاية منها وهي التي تنسجم في صورة حضارة – يعد ضرورة أيضا " [1].

[1] – مالك بن نبي ، في مهب المعركة ، ص164.

خلاصـــــــة :

إن الأفكار هي المحرك الأساسي في بناء الحضارة ، فالحضارة يصنعها تاريخ الإنسان وهذا الأمر مرهون بمدى الانسجام بين النمط الفكري الذي يحكم هذه الحضارة عبر التاريخ وبين الطاقات المتوفرة التي يمكن توفيرها لتنفيذ الجانب العملي ، وصناعة التاريخ وبين الطاقات المتوفرة التي يمكن توفيرها لتنفيذ الجانب العملي ، وصناعة التاريخ عند مالك بن نبي تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث عالم الأشخاص وعالم الأشياء وعالم الأفكار ، وهذه الثلاثة لا تعمل متفرقة بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج اديولوجية من عالم الأفكار ، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء ، من اجل غاية يحددها عالم الأشخاص كما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فان توافق هذه الوحدة مع الغاية منها ، وهي التي تنسجم في صورة حضارته ، يعد ضروريا واعتبر مالك أن أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا ، بل يجب أن تنسجم الأفكار والعواطف والأقوال والخطوات بمع ما تقتضيه المرحلة التي فيها امتنا . وقد حدد الدورة الحضارية بثلاث مراحل أولها مرحلة الروح وفيها يعتنق إنسان ما قبل الحضارة الفكرة الدينية ويتفاعل معها فينهض والثانية مرحلة العقل وتبلغ فيها مرحلة الحضارة مداها ، فيها تحبوا الروح قليلا ويسيطر العقل وتبدأ الغرائز في الظهور وأخيرا مرحلة الغريزة حيث تظهر على حساب الروح والعقل وتنحدر الحضارة نحو الأفول ، وحسب بن نبي الحضارة لا تستورد ، وإنما هي عبارة عن إبداع ، وليس تكديسا ولا جمعا لركام من الأشياء ، وإنما هي تركيب للعناصر الثلاث إنسان ، تراب ، وقت وهذه المعادلة الشهيرة التي بين فيها رأس مال الحضارة وهي : الحضارة = إنسان + تراب + وقت ، وانه لا يتم التفاعل بين العناصر الثلاثة إلا بتدخل مركب معين هي الفكرة الدينية ، وانطلاقا من هذه المعادلة يتضح لنا أن المنتج الحضاري لأي شعب من الشعوب هو المادة الأولى التي يقوم عليها استمراره وأمنه القومي ، وبقدر ما يملك

من طاقة بشرية فعالة وإدارة طبيعية للبقاء وقدرة على التفاعل المنتج الحضاري وامتزاجه بعقيدة راسخة تضمن تماسكه ووفرة عطائه ، ويرى ابن نبي أن التحدي الذي يواجه الأمة اليوم ذو جانبين :

* الوعي بالأفكار السابقة ، خاصة ان استيراد المنتج الحضاري لا ينتج حضارة .

* العمل على الاستفادة من المنتجات العربية ، وذلك ب :

- بناء الإنسان الواعي الحامل لهمومه .
- توفير الشروط الملائمة لاستغلال الأراضي والاستفادة منها .
- استثمار الزمن .

تمهيـــــد:

مالك بن نبي فيلسوف حضارة وعالم اجتماع وعالم تربية مرموق، لقد عاشت فكرة الحضارة في عقله ووجدانه ، وشغلت تفكيره في كل كتاباته ، إلى درجة نستطيع أن نقول معها إن الفكر الإسلامي المعاصر لم يشهد تقريبا مفكرا شغلته قضية الحضارة مثل مالك بن نبي ، اعتبر بن نبي الحضارة كوحدة للتحليل دفعة إلى تطوير جملة من الأدوات المنهجية ، والمعرفية لدراسة مشكلات الحضارة الإسلامية والإنسانية ، وتطرقنا في هذا الفصل إلى مفهوم الحضارة ، والدورة الحضارية : مرحلة الروح ، مرحلة العقل ، مرحلة الغريزة ، والعناصر الثلاثة المكونة للحضارة : الإنسان ، التراب ، الوقت ، والعوالم الثلاثة للحضارة : عالم الأشخاص ، عالم الأفكار ، وعالم الأشياء .

1- : مفهوم الحضارة :

إن المتبع للفظ الحضارة ، كما ورد في معاجم اللغة العربية ، لا يكاد يخرج عن دائرة الإقامة في الحضر أي المدن والقرى ، فهو نقيض البداوة والتي تعني الإقامة المتنقلة في البوادي ، حيث يرى ابن المنظور في معجمه لسان العرب إن المصطلح الحضارة يعني إقامة الحضر وهي خلاف البدو أي العيش في مكان وفق معطيات وطرق تخلف عن تلك المعهودة في البادية ، الحضارة تعني الإقامة في الحضر ، بخلاف البداوة التي تعني الإقامة في البوادي .

1-2 : الحضارة عند الغرب :

1-2-1: تعريف البرت شفيتسر:

يعرفها بقوله الحضارة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماعات والجماهير على السواءّ ، إن الحضارة في تصوره انبعاث روحي لجماعة من الناس يربطهم مفهوم متقارب للوجود . فينعكس ذلك على مختلف ألوان نشاطهم في الفن والدين والفلسفة والسياسة والاقتصاد ، ولهذا يكون مفهوم كل جماعة متميزا عن غيره في مجال التعبير والانبعاث الروحي فالشخص ليس هو المكون للحضارة (من صنع إرادته) بل هو مخلوق حضارته ، إن روح كل حضارة تحمل إمكانات جديدة خاصة بها ، تعبر عن نفسها من خلالها هذا التعبير الذي ينشا وينحل ولن يعود أبدا ، لذا لا يوجد فن واحد أو رياضيات واحدة أو علم واحد ، اذ لكل حضارة فنها وادبها وعلومها الخاصة ، وان لكل علم أو فن حياة محدودة مستقلة بذاتها مشابهة لحياة النباتات و الأزهار، وكما أن أزهار

الحقول تنمو من دون أن تعي هدفها وغايتها ، تنمو الحضارات من دون أن تشعر بفكر أو غاياتها .[1]

يعتبر شفيتسر الحضارات مجرد تراكيب عضوية يتألف منها التاريخ ، وان التاريخ أي حضارة يعادل تاريخ الإنسان أو الحيوان أو الشجرة ، لذا يمكن من خلال تعيين سياق حضارة ما ، تعيين سياق باقي الحضارات ، لان الحضارة مشابهة للكائن العضوي وللأدوار التي يمر بها طفولة ، شباب ، كهولة ، شيخوخة فموت ففناء ، وان هذا الطابع العضوي للحضارات قد شمل التاريخ .[2]

1-2-2 : تعريف ارنوند توينبي :

توينبي لم يقف عند هذا التصور بل رأى أن للحضارات حركة شاملة مركبة متقدمة إلى الأمام وهي في الوقت نفسه حصيلة حركات دورية جزئية. أي أن توينبي قد جمع بين معنى التقدم في التاريخ من بداية ومعنى ونهاية، وبين التكرار الدوري، وقدم تشبيها يعبر من خلاله عن هذه الحركة المركبة الشاملة للحضارات فقال: (إن الدواليب تدور فعلاً على محاورها دورات متكررة متتابعة ولكن حركتها الدورية هذه، هي التي تسير بالعجلة إلى الأمام.)[3]

ولتوضيح هذه الفكرة بشكل أوسع نقول: لقد درج المفكرون والباحثون بقضية التغير الحضاري والتبدل التاريخي على تقسيم مسار حركة التاريخ إلى شكلين رئيسين هما التالي:

---

[1] – كمال بن قوية ، الأخلاق وأهميتها في بناء الحضارة عند كل من مالك بن نبي و البرت اشفيتسر ، رسالة ماجيستار، كلية أصول الدين ، جامعة الجزائر ، المشرف عمار جيدل ،2002 ، ص43

[2] – نفس المصدر ، ص 45

[1] – هنا غانم ، فلسفة الحضارة ، مطبعة ابن خلدون، دمشق، 1982 م ، ص 110 .

الشكل الأول: أخذ صورة الخط المتقدم إلى الأمام من البداية إلى النهاية، وهذه الصورة ورثناها عن الأديان الموحدة المؤمنة بسير البشرية بمسار متقدم من بدء الخليقة وإلى أن تقوم الساعة، بمعنى آخر إن التغيير الحضاري يسير في خط أساسي له بداية ومنطلق وغاية ونهاية. ويعتبر القديس أوغسطين أحد ممثلي هذا الاتجاه.

الشكل الثاني: أخذ صورة التغير الدوري، وهي صورة دورية تمثل هذا التغير متخذاً شكل دورة واحدة أو دورات متتابعة وابن خلدون واحد ممن يمثلون هذا الاتجاه أي اتجاه التعاقب الدوري للحضارات، ولكن ضمن إطار الدين الإسلامي بوجه عام. وهناك شكل ثالث نتج عن الجمع بين الصورة الأولى، التي تتبع خطاً متجهاً إلى غاية، وبين الصورة الثانية التي تتمثل بالتكرار الدوري (أو التعاقب الدوري). وتوينبي يتبنى الشكل الثالث، حيث رأى أن للحضارة حركة شاملة متقدمة إلى الأمام، وهي بالوقت نفسه حصيلة حركات دورية جزئية، ولتوينبي تشبيهات كثيرة حول هذه الحركة فيشبهها بحركة مكوك الحائك المستمر ذهاباً وإياباً على وتيرة واحدة، وهي على الرغم من ذلك، تنسج نسيجاً يمتد ويتسع تدريجياً (وكذلك تنسج يد الأيام نسيج التاريخ من خلال الأحداث المتكررة تكرراً وبإمكاننا أن نجد لهذا المفهوم صوراً و تشابيه واستعارات أخرى، ولكن الجوهر هو نفسه أي مفهوم التطور الناتج عن التكرار الجامع بين مفهومي الحركة المتجهة إلى غاية (أمامية أو خلفية)، والحركة الدائرة على ذاتها والعائدة إلى ما كانت عليه)[1] .

[1] – نفس المرجع ، ص 111 .

3-1 :الحضارة عند العرب :

3 -1 : تعريف بن خلدون للحضارة :

يرى ابن خلدون أن حياة الدول والشعوب تمر بفترات ومراحل قلما تختلف، حيث تنتقل من طور البداوة والتوحش إلى حياة البذخ والترف ورقة العيش، لتصل في نهاية المطاف إلى سن الشيخوخة والهرم ثم الفناء، وهي تتشابه ي ذلك مع الأطوار التي تعرفها حياة أي فرد من النوع الإنساني، بداء من فترة الطفولة والشباب، إلى الكهولة الشدة، ثم الشيخوخة والهرم.

وحسب رأي ابن خلدون فإن المراحل المذكورة طبيعة في الدول والأمم كما هي طبيعة في الأفراد . وهو إذ صنف تاريخ الدول والمجتمعات إلى ما ذكرنا من المراحل فإنه يعتمد على عنصرين مهمين:

الأول: بناء على ما جاء في القرآن الكريم من الشواهد والأدلة التي تعزز ما ذهب إليه وقرره.

الثاني : بناء على تجارب الحياة، وتواريخ الأمم التي قلما تحيد عن هذا المقياس .

هذا وقد رأينا تناول كل مرحلة بالتفصيل، مشيرا إلى مظاهرها وأوصافها، فكان لازما لننظر فيها علينا بعين التأمل والبصيرة ونتأكد من صدق وحقيقة ما يقول .
المرحلة الأولى : فيصفها بقوله : "لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم، فحسهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون [1]"

[1] – ابن خلدون ،المقدمة ، المرجع السابق ، ص 170

المرحلة الثانية : " فيصفها بقوله ان الجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة ، ومن الشظف إلى الترف والخصر ، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحدية ، وكسل الباقين عن السعي فيه ، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء، وتؤنس منهم المهانة والخضوع ، ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول ، وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم، وسعيهم إلى المجد، ومراميهم في المدافعة والحماية فلا يسعهم ذلك بالكلية، وإن ذهب منه ما ذهب، ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم [1].

المرحلة الثالثة : " تأتي مرحلة الجيل الثالث الذي يعرف بجملة من الأوصاف لا تحمد عاقبة أصحابها، لكونهم ينسون تماما خصال الشجاعة والبأس ويستكينون إلى رغد العيش، ويتخلون عن واجباتهم في الدفاع عن بيضتهم، وفيهم يقول : وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة، كأن لم تكن ويتقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنقوه من النعيم وغضارة العيش، فيصيرون عيالا على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة، ويلبّسون على الناس في الشارة والزي، وركوب الخيل وحسن الثقافة، ويموهون بها . فإن جاءهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورهم . فإن جاءهم المطالب لهم، لم يقاموا دافعة، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة، ويستكثر بالموالي، ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حين يتأذن الله بانقراضها "[2]

[1] – نفس المرجع ، ص 171

[2] – نفس المرجع ، ص 172

ويجزم العلامة ابن خلدون بصحة هذه النظرية، وعمومها في الغالب من الأحوال على الأمم والدول، فهو يذكر ذلك وبكل ثقة، ومستنده التجربة والعلم بأحوال الأمم الماضية، وبعلوم القرآن، وقصص الأولين ممن ذكرهم الله فيه فيقول : فهذه كما تراه ثلاثة أجيال، فيها يكون هرم الدولة وتخلفها ..وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة ، ولا تعدوا الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده " [1] ثم يضيف ابن خلدون، دليلا من القرآن يؤيد به نظريته ، وهو قوله تعالى : { وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ } [النحل:61].

1-3-2 : تعريف ابن باديس للحضارة :

شرح ابن باديس فكرة الدورة الحضارية، أو مراحل تطور الأمم، وبسطها انطلاقا من فسيره لآية قرآنية، هي قوله تعالى {وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أو مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } [الإسراء:58].

ولكنه لم يخرج عن المقدمات والنتائج التي خلص إليها ابن خلدون، وإنما تناول القضية بصفته عالما مفسرا لكتاب الله، مما مكنه من تأصيل الأطروحات التي درسها ابن خلدون قبله ،وعلى هذا المنوال، كان الإمام عبد الحميد بن باديس يمهد بذكر الأطوار الثلاثة التي تمر بها الأمة من شباب وكهولة وهرم قبل أن يشرح الآية ، فيقول : " الأمم كالأفراد تمر عليها ثلاثة أطوار : طور الشباب وطور الكهولة، وطور الهرم ثم يشرح تلك الأطوار واحد تلو الآخر، كل بعلاماته ومميزاته ، فيقول: " فيشمل الطور الأول نشأتها إلى استجماعها قوتها ونشاطها، مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة، ويشمل الطور الثاني ابتداء أخذها في التقدم والانتشار وسعة النفوذ، وقوة السلطان إلى استكمالها قوتها، وبلوغها غاية ما كان

[1] – نفس المرجع ، ص 174

لها من استعداد، وما لديها من أسباب ويشتمل الطور الثالث إبداءها في فناء الاضمحلال، إما بانقراضها من عالم الوجود، وإما باندراسها من عالم السيادة و الاستقلال "[1].

ويجزم ابن باديس بوجود إلى بوجود هذه المراحل، وبمرور الأمة بها –كما جزم بذلك سلفه ابن خلدون– فيقول : " وما من أمة إلا ويجري عليها هذا القانون العام، وإن اختلفت أطوارها في الطول والقصر، كما تختلف الأعمار [2]".

يرجع ابن باديس إلى تاريخ أمة بني إسرائيل فيشرح المراحل الثلاثة التي مرت، مستنير بآيات القرآن تتحدث عن هلاك الأمم فيقول : "هذه السنة الكونية التي أجرى الله عليها حياة الأمم هذه الدنيا أشار إليها في كتابه العزيز "[3]، فذكر أعمار الأمم مقدرة بآجالها في مثل قوله تعالى : { وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أو مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } [الأعراف:34]، وذكر إنشاء الأمم على إثر الهالكين في مثل قوله تعالى : { وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ }[الأنبياء:11]، وذكر طور شباب الأمة ودخولها معترك الحياة في مثل قوله تعالى { عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [الأعراف:129]، فإن بني إسرائيل استلفوا في الأرض حتى قووا واشتدوا، وتكونت فيهم أخلاق الشجاعة والنجدة والحمية والأنفة بعد خروجهم من التيه، وذلك هو الطور الأول طور الشباب للأمة الإسرائيلية .

وذكر الطور الثاني، وهو طور الكهولة واستكمال القول وحسن الحال ورغد العيش في قوله تعالى : {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ } [النحل:112]، وذكر الطور الثالث طور الضعف والانحلال في مثل قوله تعالى : {

[1] – عبد الحميد بن باديس ، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير والكلام الحكيم الخبير ، 1359 هـ ،ص 189

[2] – نفس المرجع ، ص 190

[3] – نفس المرجع ، ص 191

وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} [الكهف:59].

غير أن باديس يعطي تفسيرا آخر لحياة الجيل الثالث الممتدة، يختلف بصورة جزئية عن تفسير ابن خلدون الذي يرى أن عدم سقوط الحكم والأمة ناتج عن عدم وجود المطالب .

فعند ابن باديس أن هذا الطور لا يكون مصيره الهلاك بالضرورة، وإنما قد يتعرض للعذاب الشديد، ثم يتجدد شبابه وتبعث فيه الحياة مرة أخرى، ويستشهد لذلك بقوله تعالى : {وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أو مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } [الإسراء:58]، فالآية هنا صرحت بنوعين من العقاب الدنيوي: الإهلاك أو العذاب الشديد .والنوع الثاني يجعل منه ابن باديس موضوعا لشرح فكرته حول تجديد حياة الأمة وانبعاثها من جديد، فيقرر وبأسلوب علمي سنني رائع أن القرى التي قضي عليها بالهلاك والاستئصال هذه قد انتهى أمرها بالموت وفاتت عن العلاج، مثل عاد وثمود من الأمم البائدة.[1]

وهنا نلفت الانتباه إلى أن باديس لا بصفته مؤرخا في هذا الموضوع بالذات، لا بصفته مفسرا تقليديا، ينقل إلينا ما قاله الأوائل ، ولكنه تناولها بصفته مصلحا وعالما مجددا ، يهمه بالدرجة الأولى الحالة التي آلت إليها الأمة الإسلامية عموما، ووضعية المجتمع الجزائري المسلم أثناء فترة الاستعمار خصوصا . ولذلك رأيناه أثناء كلامه، يحاول أن يستنهض الهمم ويبث الوعي بين الصفوف حين يشير إلى حالة الأمة المعذبة يمكن علاجها.

1-3-2: تعريف مالك بن نبي للحضارة :

أما مالك بن نبي فيعرض لشرح الدورة التاريخية بطريقة تمتاز بالدقة والعمق في التحليل، وهو لا يختلف مع سابقيه، ولكنه يضيف عنصرا جديدا يجعله السبب الرئيسي

[1] – نفس المرجع ، ص 193

في تكوين الحضارة ، وانطلاق حركة التاريخ ، هذا العنصر هو : العقيدة الدينية ، إذ يرى أن كل حضارة لا بد من عقيدة دينية، تكون هي السبب في نموها وسيادتها . وفي ذلك يقول : " فالحضارة لا تنبعث . كما هو ملاحظ . إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها "[1].

ويشرح عوامل السقوط وأسباب الهلاك فيقرر أفول حضارة من الحضارات إنما يرجع إلى تغلب جاذبية الأرض عليها، وتخليها عن فكرتها الدينية التي كانت سبب مبعثها " ومن هنا نستطيع أن نقرر أن المدنيات الإنسانية حلقات متصلة تتشابه أطوارها مع أطوار المدنية الإسلامية والمسيحية، ثم يبدأ أفولها بتغلب جاذبية الأرض عليها، بعد أن تفقد الروح ثم العقل "[2] .

ويرى أن مراحل التطور قد اجتازها المسلمون بفكرتهم الدينية التي أنتجت الحضارة، ولكنهم للأسف ما لبثوا أن عادوا إلى الحياة البدائية بسبب انكماش تأثيرات الروح والعقل وانطلاق الغرائز الدنيا من عقالها، فيقول : " وكذلك كان المسلم، فقد بعث الدين فيه روحا محركا للحضارة فلم يلبث بعد مرحلة قضاها في الخلافات والحروب أن عاد إلى حيث هو الآن إنسانا بدائيا "[3] .

التجارب التاريخية، وحياة المجتمعات وعلى هذا فهو لا ينطلق من فراغ، لذلك رأيناه يجزم مثل سابقيه بأن " التجارب التاريخية العامة تؤكد أطوار الحضارات هذه، ولا تكاد حضارة ما تشذ عن هذه القاعدة "[4].

---

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، سوريا ، ص 75

[2] – نفس المرجع ، ص 78

[3] – نفس المرجع ، ص 79

[4] – نفس المرجع ، ص 80

إن أزمة الحضارة التي تعتبر علامة السقوط وتوحي بانتهاء دور الأمة لا تخص أمة بعينها، وإنما هي قانون عام ينطبق على كل حضارة قطعت الأطوار الثلاثة، فلا فرق بين الإسلام والحضارة المسيحية أو الحضارات الأخرى في اجتياز تلك الأطوار والمراحل ونخلص إلى القول من خلال الدراسة التحليلية لمالك بن نبي حول نشأة الحضارات وسقوطها أن :

أولا : أن الحضارة تنشأ من فكرة دينية، وليس من غيرها، وأن الفكرة الدينية هي المحرك الأساسي والدافع الرئيسي لتطور الأمم، وبناء الحضارات وانه لا حضارة بلا دين .

ومعنى ذلك أنه لكي تستمر الحضارة، ينبغي استمرارا مدها بعناصر القوة من خلال الفكرة الدينية ، و هذا العنصر لم يناقشه ابن خلدون أثناء حديثه عن الدورة التاريخية ولكنه تناول فيما يبدو أثناء كلامه عن علاقة القوة بالعصبية الدينية في موضوع آخر من المقدمة .

ثانيا : أن الإنسان يكون قبل بدء دورة الحضارة في حالة سابقة لها بمعنى له استعداد فطري وخلقي قوي، يدفعه لسلوك طريق الحضارة، فيبني ويبدع ويتحمل التضحيات والمشاق. أما في نهاية الدورة فإنه يكون متفسخا حضاريا، فيدخل في مرحلة الانحطاط الأخلاقي والروحي ولم يعد قابلا لإنجاز عمل متحضر .

ثالثا : أن الفرق بين ما كتبه مالك في موضوع وما سبقه المؤرخ ابن خلدون، هو أن هذا الأخير يمكن قبل اكتشاف منطق التاريخ في مجرى أحداثه، فكان بهذا المؤرخ الأول الذي قام بالبحث عن المنطق إن يكون أول من أتيح له يصوغ قانون الدورة التاريخية، لولا أن مصطلح عصره قد وقف به عند ناتج معين من منتجات الحضارة ونعني به الدولة، وليس عند الحضارة نفسها في حين أن مالك نقل القانون إلى جميع عناصر الحياة الاجتماعية ولم يقصره فقط على الدولة التي تعتبر عنصرا من بين عناصر الحضارة.

رابعا : على دارس حياة الأمم والشعوب في تجاربها وحضارتها من الزاويتين الشرعية والسنية والتاريخية، ألا يستغني بما كتبه أحد الأقطاب عن الاثنين الآخرين، فهما – حسبما يتراءى لي– سلسلة في حلقة يساعد بعضهما في فهم بعض ما جاء به الأخر .

فإن كان ابن خلدون يسبر أغوار التاريخ وحياة الأمم بدويها وحضرتها فإن ابن باديس يتناول كذلك مع عرضها على القرآن الكريم مرحلة ليزيدها وضوحا ونضجا، في حين أن مالكا يفعل ذلك بإبراز مايلي :

1 – دور الفكرة الدينية في بناء الحضارة وتقدم الأمة .

2– شمول الحضارة للدولة والمجتمع وتفاعلات عناصر الحياة المختلفة .

الحضارة كما يعرفها مالك بن نبي : " هي إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج المثالي الذي اختاره وعلى هذا النحو تتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل يتحكم بدوره في جميع خصائصه التي تميزه عن الثقافات الأخرى " [1]، ونلاحظ من خلال هذا التعريف أن الأفكار هي المحرك الأساسي في بناء الحضارة.

وهي النتاج الحاصل عن ضرورة حركة المجتمع، حركة شاملة، في مجال الفكر والاقتصاد، وفي رحاب التوازن الروحي والمادي، فالطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية هو ما نطلق عليه اسم الحضارة ، فالحضارة يصنعها تاريخ الإنسان بعد أن تمده الطبيعة بالطاقات، ولكن إذا أحسن تكييف هذه الطاقات، وتوجيهها نحو أهداف محددة واضحة، وهذا الأمر مرهون بمدى الانسجام

[1] – مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، عبد الصابور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، ص 16

بين النمط الفكري الذي يحكم هذه الحضارة عبر التاريخ، وبين الطاقات المتوفرة أو التي يمكن توفيرها لتنفيذ الجانب العملي.

وصناعة التاريخ عند مالك بن نبي تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث:

- تأثير عالم الأشخاص.
- تأثير عالم الأشياء.
- تأثير عالم الأفكار.[1]

لكن هذه الثلاثة لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء، من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص.. وكما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها، وهي التي تنسجم في صورة حضارة، يعد ضروريا أيضا .

2- مراحل الدورة الحضارية:

واعتبر أن أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا، ولعل أكبر أخطاء القادة أنهم يُسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية ومن هنا تبدأ الكارثة، ويخرج قطارنا عن طريقه حيث يسير خبط عشواء، وعليه فإنه لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلاً مكان أمته ومركزها، بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته .[2]

هذه الدورة التي تحدث عنها مالك بن نبي ذات ثلاثة مراحل :

[1] – نفس المرجع ، ص 23

[2] – مالك بن نبي، شروط النهضة، المرجع السابق ، ص 53.

المرحلة الأولى : وفيها يعتنق إنسان ما قبل الحضارة، الفكرة الدينية ويتفاعل معها فينهض.

المرحلة الثانية : تبلغ فيها الحضارة مداها، وفيها تخبو الروح قليلاً ويسيطر العقل وتبدأ الغرائز في الظهور.

المرحلة الثالثة : وهي مرحلة الغريزة حيث تظهر على حساب الروح والعقل وتنحدر الحضارة نحو الأفول .[1]

وهذا ما يمثله المنحنى البياني للقيم النفسية الاجتماعية ، صورة لتغيرات هذه القيم عبر المراحل الحضارية المتنوعة في الشكل الآتي :

الشكل رقــم (1)

يبين الدورة الحضارية

عنـــد مالك بن نبي

[1] - نفس المرجع ، ص 74

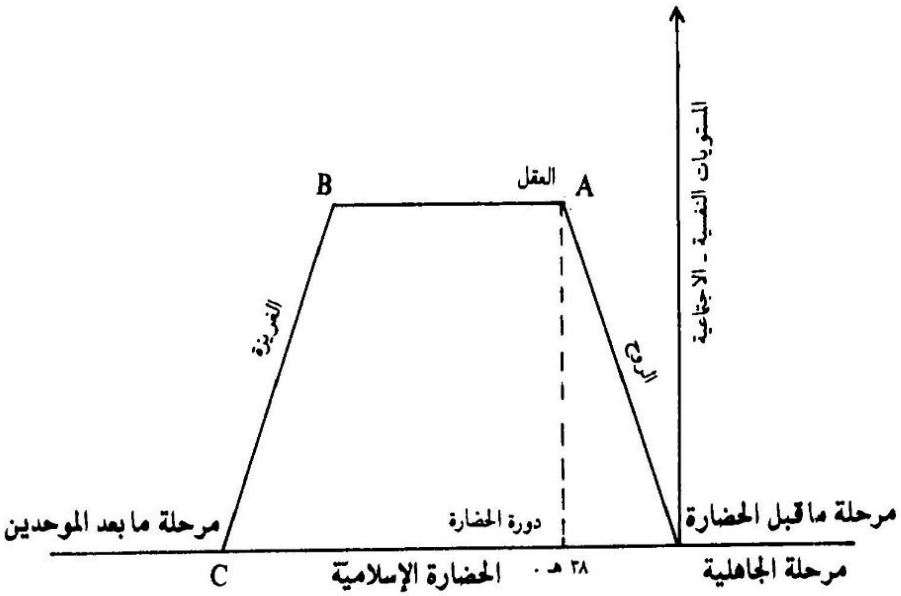

وبناءً عليه حدد مالك بن نبي مشكلة العالم الإسلامي أنه يعيش فترة ما قبل الحضارة وتصوّر أن "مجتمع ما بعد التحضر ليس مجرد مجتمع لا يتحرك من مكانه وإنما هو مجتمع ينتكس في خط سيره، أي يسير إلى الخلف بعد أن انحرف بعيداً عن طريق حضارته وانقطعت صلته بها. فالمجتمع الذي تعيش فيه عقول خاوية أو محشوة بأفكار ميتة وضمائر خائرة ومجموعة من الروابط المتهدمة لا يستطيع أن يستمر في سيره، وبالنسبة للمجتمع الإسلامي فإنه يكون عندئذ قد بدأ في مرحلة ما بعد الموحدين أي ما بعد التحضر" [1] ، وإذا أدرك المسلم اليوم

أن أوربا تعيش المرحلة الثالثة من دورة حضارتها (مرحلة الانحدار والسقوط) وهي الآن في طريق التحلل والزوال عرف أنه لا سبيل لتقليدها أو الاقتباس منها، فميتٌ لن يحيي ميتاً.

[1] – مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، ط1، 1988، ص 68.

2 – 1 :المرحلة الأولى مرحلة الروح :

وهي المرحلة الأولى من التحضر المميزة باندفاع روحي قوي ، وحسب رأي"مالك بن نبي" كل التطورات الحاصلة في المجتمع، سواء كانت أزمات مفضية إلى تقهقر ، أم قفزات مفضية إلى تقدم . فهو في هذا الصدد يقول :" والحق أن تطور الإنسانية هو ما يحدث من نمو في مشاعرها الدينية المسجلة في واقع الأحداث الاجتماعية ، تلك التي تطبع حياة الإنسان وعمله على وجه الأرض "[1] .

إن مرحلة الروح تكمن فيما يسميه مالك بن نبي بسلم القيم النفسية الزمنية ، التي تميز مستوي حضارة ما في وقت معين كالإسلام أو المسيحية ، والفرد الذي يشكل بالنسبة إلى هذا الإيمان السند المحسوس ، وهو هنا المسلم أو المسيحي ... وذلك ان الإيمان عندما يتخذ دوره من الناحية النفسية والاجتماعية ، بحيث ينتقل بالإنسان من حاله الطبيعي أو الفطري بجميع غرائزه المعروفة إلى حال الإنسان المتحرر جزئيا من قانون الطبيعة ، وذلك من خلال عملية اشتراط يعبر عنها علم النفس فرويد بالكبت التي تنظم ولا تلغي غرائزه .[2]

فهو في هذه الحالة يصبح يمارس حياته وفق قانون الروح ، الذي ينظم غرائزه ويعرفه مسوغات وجوده ، فينطلق بذلك بمعية الأفراد الآخرين بالقيام بأول فعل تاريخي وهو تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية اللازمة لأداء العمل الاجتماعي المشترك ،وتكون أفعاله ونشاطاته المختلفة نابعة من قدرته وإرادته المعبرة عن التوتر ، الذي يعتريه والذي يحوله إلى طاقة وفعالية باعثة للحضارة

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ،المرجع السابق، ص 66

[2] – مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العام الإسلامي ، المرجع السابق ، ص 70

وهكذا يغدو الدور الاجتماعي للدين مرتكزا أساسا حول تشكيل مجموعة قيم تجعل من " الإنسان العضوي البيولوجي إلى وحدة اجتماعية ، ومن الوقت الذي هو ليس إلا عبارة عن مدة زمنية إلى وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات العمل ، ومن التراب الذي يقدم بصورة فردية غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط إلى مجالا مجهزا ومكيفا تكيفا فنيا ، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة تبعا لظروف عملية الإنتاج "[1]

إنها باختصار الفعالية التي يحدثها الجانب الروحي المتمثل في مختلف نشاطات الفرد في مجتمعه من اجل فعالية باعثة للحضارة .

2 – 2 : المرحلة الثانية مرحلة العقل :

إن كلمة العقل هنا جاءت حسب المحتوى الذي ضمنه إياها "مالك بن نبي " مرادفة للاجتهادات الشخصية والمتحررة من سلطة الروح المبدأ الأخلاقي والتي تسمح ببداية ظهور الحسابات الشخصية والمصلحية وبروز الأنانية مما يمزق جوانب من خيوط شبكة العلاقات الاجتماعية الكبيرة ، اما العقل كجهاز للإدراك والاستبصار وتحقيق المعرفة ، فإنه معمول به في المرحلة السابقة ، على أساس أن تطور المجتمع حضاريا محكوم بافتتاح أبواب النشاط العقلي فيه . وما قدمه العلماء ، على سبيل المثال ، إطار الحضارة الإسلامية أو المسيحية من إنتاجيات مهمة في مجالات عديدة هو ، في الواقع ،نتاج الهندسة الإسلامية والمسيحية للعقل ".[2]

وهكذا يمكن القول ، تبعا لما تقدم ، عن مرحلة العقل تمثل بالنسبة لمالك بن نبي مرحلة تحلل بطيء وجزئي للمجتمع ، ونقص في الفعالية ، ناجم عن انكماش في تأثير

[1] – نفس المرجع ، ص 71

[2] – نفس المرجع ، ص 73

المبدأ الروح في حياة المجتمع بصفة عامة ونمو في العقل ، مما يؤدي ذلك بصفة آلية إلى توقفه عن الصعود الحضاري.

إن هذا ما وقع بالضبط حسب مالك بن نبي بالنسبة للحضارتين المسيحية والإسلامية مثلا ، فالحضارة المسيحية التي بدأت مرحلتها الأولى مرحلة الروح بعهد شرلمان متميزة بالمبدأ الأخلاقي ، تخلت عنه في المرحلة التالية المتزامنة مع عهد النهضة ، الذي طبع بطابع ديكارتي أي بهيمنة العقل ، والشيء نفسه بالنسبة للحضارة الإسلامية حيث تخلت عن المبدأ الذي كان يسود حضارتها الأولى ، التي تبدأ من غار حيراء إلى نهاية عهد الخلافة الراشدة ، لتدخل مرحلة جديدة في حياتها ،يسودها العقل وذلك يبدو جليا في حكم المماليك العصر الأموي والعصر العباسي الأول اتجه الأفراد إلى تقديس الأشخاص مهما كان بعدهم أو قربهم من المبدأ،مما نتج عنه بروز مذاهب واتجاهات سياسية وفقهية متصارعة ، أثرت بشكل نسبي على شبكة العلاقات الاجتماعية ، بحيث اعترى التمزق بعض الجوانب لعدم سيادة المبدأ سيادة مطلقة .

حسب مالك بن نبي بأنه تظل هذه السيادة مواصلة نقصانها منذ ان دخلت الحضارة مرحلة العقل ،لان الغرائز في هذه المرحلة ، تجد المجال مفتوحا للتحرر شيئا فشيئا من القواعد والضوابط التي رسمها المبدأ الأخلاقي / الروح . وعندما يبلغ هذا التحرر تمامه تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل الحضارة مرحلة الغريزة.

2 – 3: المرحلة الثالثة مرحلة الغريزة:

وهي مرحلة تنتهي فيها الوظيفة الاجتماعية للمبدأ الأخلاقي الروح، بحيث يصبح هذا المبدأ هنا عاجزا عن القيام بمهمته تماما في مجتمع منحل ، استعادت الطبيعة فيه بجميع الغرائز التي تتضمنها غلبتها .

وعلى الرغم مما قد يبدو لبعض المفكرين من ان المجتمع في هذه المرحلة كان ميسورا في ظاهره ، ناميا ، غير أن شبكة علاقاته هي في الواقع متفككة ، ويتجلى ذلك في ما تناوله ابن نبي" فيما يصيب الأنـا عند الفرد من تضخم ينتهي إلى تحلل البناء الاجتماعي المتكامل لصالح الفردية ،عندما يختفي الشخص أو عندما يسترد الفرد استقلاله وسلطته داخل البناء الاجتماعي ... فالعلاقات الاجتماعية تكون غير وظيفية عندما تصاب الذوات بالتضخم ، فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبا أو مستحيلا ، اذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات ، بل للعثور على أدلة و براهين " ويظهر ذلك مثلا في السياسات التي يتبناها قادة بعض دول العالم الإسلامي وافريقيا واسيا ، في المجال الاقتصادي بحيث يحاولون " تطبيق حلول فنية ، يقترحها بعض المختصين الأوروبيين ، على الرغم من أن هذه الحلول قد تكون عديمة الجدوى ، لأنها لا تتفق مع عناصر الأنا فيها (المعادلة الاجتماعية و التركيبة النفسية والذهنية الخاصة بالمجتمع) " [1].

ومن الطبيعي أيضا أن يمتد اثر الاضطراب والتفكك في شبكة العلاقات الاجتماعية في هذه المرحلة إلى تكاليف الحياة اليومية للأفراد إذ أن التزايد الكبير والمستمر مثلا لسعر الخبز أو البطاطا أو الطماطم ، من مدة زمنية لأخرى ، لا يمكن إرجاعه إلى مشكلات تتعلق أساسا بندرة المنتوج في السوق نظرا لعدم كفاية الإنتاج ، وهذا بسبب عدم خصوبة الأرض .

إلا أن هناك دول لها أراضي خصبة جدا ، مثلا أراضي العراق (فيما بين الدجلة والفرات)، والجزائر (سهول متيجة والعبادلة...) ، والسودان ... ولكنها دول تواجه المشكلة نفسها (ارتفاع الأسعار) .

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، المرجع السابق ، ص 70

" إذا كان الإنتاج قد تغير في هذه الدول ، وأصبح غير كاف مما انجر عنه من ارتفاع كبير في الأسعار ، فما ذلك إلا لأسباب اجتماعية تتصل بتنسيق الأعمال الزراعية والتوزيع ، أي لاضطراب في شبكة العلاقات " [1]

إن هذه المرحلة تتميز بسيطرة فكرة الشيء ، بحيث يتحول الهدف من النشاط الاجتماعي إلى ما يعرف ب " الكم والعدد " .

3 – العناصر الثلاثة المكونة للحضارة ودور الدين:

لقد ناقش مالك بن نبي فلسفة الحضارة وفي مقدمتهم أرنوند توينبي في فكرة نشوء الحضارات ، ووصل بنا إلى نظريته التي أصبحت مشهورة ، وهي أن الحضارة لا تستورد ، وإنما هي عبارة عن إبداع ، وليس تكديسا ولا جمعا لركام من الأشياء، وإنما هي تركيب للعناصر الثلاث إنسان تراب ، وقت . لقد وضع مالك بن نبي معادلته الشهيرة التي بيَّن فيها رأسمال الحضارة_ أيّ حضارة_ فمعادلته هي :

الحضارة = إنسان + تراب + وقت [2]

وأنه لا يتم التفاعل بين العناصر الثلاثة إلا بتدخل مركِّب معيَّن هو (الفكرة الدينية) وهي التي رافقت تركيب الحضارة عبر التاريخ، ويؤكد على أهمية الدين في مبعث الحضارات فيقول" الحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية... فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعا ومنهاجاً "[3] دور الدين إذاً في الحضارة هو دور العامل المركب لعناصرها، واختفاء هذا الدور يعني تحلل هذه العناصر إلى وضع غير مركب أي تحلل الحضارة ". الدين في رأي بن نبي إذاً هو

[1] – مالك بن نبي ، المسلم في عالم الاقتصاد ، المرجع السابق ، 53 .

[2] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص 65

[3] – مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، دار الفكر ، ط 1 ، دمشق ، 1986، ص 66.

العامل الذي تقوم الحضارة به وتتحلل بصورة مضطردة كلما ضعفت فاعليته ،وهذه العناصر لا تمارس مفعولها ضمن حالة تشتتيه ، ولكن ضمن تركيب متآلف يحقق بواسطتها جميعا إرادة وقدرة المجتمع المتحضر ، ومنه تصبح المعادلة كالتالي :

الحضارة = (إنسان + تراب + وقت)* العامل الديني [1]

وانطلاقا من هذه المعادلة يتضح لنا أن المنتج الحضاري لأي شعب من الشعوب هو المادة الأولى التي يقوم عليها استمراره وأمنه القومي ، وبقدر ما يملك من طاقة بشرية فعالة وإرادة طبيعية للبقاء وقدرة على تفاعل المنتج الحضاري وامتزاجه بعقيدة راسخة تضمن تماسكه ووفرة عطائه ، وبقدر ما يكون منتجه الحضاري أكثر وفرة ، ويؤدي إلى البقاء و التماسك والتماسك وسينعكس في تحقيق الأمن والاستقرار ، وبذلك يتحقق الاستثمار ويبنى العمران ويعمر .

ويرى بن نبي إن التحدي الذي يواجه الأمة اليوم ذو جانبين :

- الوعي بالأفكار السابقة ، خاصة بان استزاد المنتج الحضاري لا ينتج حضارة .

- العمل على الاستفادة من المنتجات الحضارية العربية ، وذلك ب :

بناء الإنسان الواعي الحامل لهمومه .

توفير الشروط الملائمة لاستغلال الأراضي والاستفادة منها

3 استثمار الزمن .

و يبقى المحرك للعناصر الثلاثة هو العامل الديني .[2]

[1] – المرجع نفسه ، ص 67

[2] – نفس المرجع ، ص 68

3-1 : الإنسان :

إن المشروع الإصلاحي يبدأ بتغيير الإنسان، ثم بتعليمه الانخراط في الجماعة ثم بالتنظيم فالنقد البناء ،وتبدأ عملية التطور من الإنسان لأنه المخلوق الوحيد القادر على قيادة حركة البناء، وتحقيق قفزات نوعية ، تمهيداً لظهور الحضارة . أما المادة فمهما يكن من أمرها تكديساً وزيادة ، فإنها تبقى تجميع كمي لا يعطي معنى كيفياً نوعياً ، إلا بسلامة استخدام الإنسان له.[1]

فالإنسان هو الهدف وهو نقطة البدء في التغيير والبناء، ومهما جرت محاولات تحديثية بوساطة الاستعارة، أو الشراء للمصنوعات ومنتجات التقنية، فإن هذه المحاولات ستكون عقيمة، طالما أنها لم تبدأ من حيث يجب، فالحل الوحيد منوط بتكوين الفرد الحامل لرسالته في التاريخ، والغني بأفكاره على حساب أشيائه.[2]

إن العلوم الأخلاقية والاجتماعية والنفسية تعد اليوم أكثر ضرورة من العلوم المادية فهذه تعتبر خطراً في مجتمع مازال الناس يجهلون فيه حقيقة أنفسهم أو يتجاهلونها ومعرفة إنسان الحضارة وإعداده، أشق كثيراً من صنع محرك أو تقنية متطورة ، ومما يؤسف له إن حملة الشهادات العليا في هذه الاختصاصات النظرية هم الأكثر عدداً في البلدان المتخلفة لكنهم لم يكونوا إلا حملة أوراق يذكر فيها اختصاصهم النظري، فصاروا عبئاً ثقيلاً على مسيرة التنمية والإصلاح، فهم القادة في المجتمعات المتخلفة على الرغم من عجزهم عن حل أبسط المشكلات بطريقة علمية عملية، وإلا لما تخلف مشروع

[1] – مالك بن نبي ، القضايا الكبرى ، دار الفكر ، سوريا ، ص 53

[2] – نفس المرجع ، ص 54

النهضة حتى الوقت الحاضر، ونحن بحاجة إلى دروس في منهجية العمل في سائر مستويات عملنا.[1]

فلتبدأ المنهجية أولا في مستوى الحديث المجرد، لأن كل عمل اجتماعي يقتضي تبادل أفكار بين عدد من الأشخاص.إن الحوار هو أبسط صورة لتبادل الأفكار، وهو بذلك المرحلة التمهيدية البسيطة لكل عمل مشترك فقواعد الحديث إذن لا تخص حسن الآداب فقط ، بل هي جزء رئيسي من تقنية العمل. [2]

فالقضية إذن لا تخص قواعد الحديث وحسن السلوك في المنتديات والمؤتمرات والصالونات والمقاهي فحسب ، بل تخص مباشرة تقنية العمل من زاوية الفعالية ، فحيث لا يكون الحديث لمجرد التسلية ، يجب أن يخضع لقواعد العمل، الذي ليس في بداية ومرحلة تحضيره، سوى مشروع في محتوى بعض الكلمات وبعض الأفكار، وفي هذا المستوى، يتداخل الجانب الأخلاقي والجانب المنطقي ليكونا معاً العمل الفعال أو العمل التافه وأظن أننا لا نزال كأمة في المستوى الثاني، فليس من الضروري – ولا من الممكن – أن يكون لمجتمع فقير، المليارات من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدهر أن ينقص من قيمته شيئاً، الرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه : الإنسان، والتراب ،والوقت ، بين الفرد الحامل لرسالته في التاريخ، والغني بأفكاره على حساب أشيائه.[3]

فحين ينظم الإنسان شبكة علاقاته الاجتماعية بوحي الفكرة في انبثاقها، فإنه يتحرك في مسيرته عبر عالم الأشخاص وعالم الأشياء المحيطة به فيتخذ العالم الثقافي إطاره في إنجاز هذه المسيرة ويأخذ طابعه تبعا للعلاقة بين العناصر الثلاثة المتحركة: الأشياء

[1] – نفس المرجع ، ص 56

[2] – نفس المرجع ، ص 57

[3] – مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، المرجع السابق ، ص 100

،الأشخاص ،الأفكار . فإذا كانت الأمة تدور في عالم الأفكار ، فإنها في أوج حضارتها، وإذا كانت تدور في عالم الأشخاص وعالم الأشياء فهي في حالة الاحتضار ونهاية عمرها الحضاري، ويصبح ترابها رخيصا ومباحا ، ووقتها لا قيمة لساعاته ،أو أيامه وأسابيعه بل وشهوره و سنينه، ولا خلاص لمجتمع من تخلفه إلا إذا كان عالم أشياءه وعالم أشخاصه يدور في عالم الأفكار ، فالثورة حين تخشى أخطاءها ليست بثورة، وإن أي ثورة، لن تستطيع تغيير الإنسان إن لم تكن لها قاعدة أخلاقية قوية . [1]

3- 2 : التراب :

وهو العنصر الثاني الذي يشكل الحضارة مع الإنسان والوقت في فكر مالك ابن نبي .وحيث يتكلم عن التراب لا يبحث في خصائصه وطبيعته ، ولكن يتكلم عن التراب من حيث قيمته الاجتماعية ، وهذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكيه ، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة، وحضارتها متقدمة، يكون التراب غالي القيمة ، وحيث تكون الأمة متخلفة – كما هو الحال اليوم ، يكون التراب على قدرها من الانحطاط ، وذلك بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه ، فها هي رمال الصحراء تغزو بشراسة الحقول الخضراء على امتداد الوطن العربي . فتترك أهلها يتامى بين يدي الصحراء المقفرة ،وبديهي أنه لا حل لهذه الأزمة غير الشجرة ، لكن إذا كان الإنسان الزارع لهذه الشجرة أو المؤتمن على رعايتها ، يعيش حالة تصحر داخلي ، فلا أمل من رؤية اللون الأخضر مرة ثانية تحت نظر ويد إنسان كهذا. [2]

3-3 :الوقت :

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، مرجع سابق ، ص 60

[2] – مرسي لحرش ، إستراتيجية استئناف البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي ، المطبعة الجهوية قسنطينة ،الجزائر ، 2006، ص 131.

وهو العنصر الثالث في تكوين الحضارة ،إن الزمن نهر قديم يعبر العالم ، ويروي في أربع وعشرين ساعة الرقعة التي يعيش فيها كل شعب؛ والحقل الذي يعمل به وهذه الساعات التي تصبح تاريخاً هنا و هناك ؛ قد تصير عدماً إذا مرت فوق رؤوس لا تسمع خريرها ، وإذا قسنا الزمن بمقياس الساعات التائهة فالقرون لا تساوي شيئاً، ،ولكنه نهر صامت حتى إننا ننساه أحياناً ، وتنسى الحضارات في ساعات الغفلة أو نشوة الحظ قيمته التي لا تعوض، وحينما لا يكون الوقت من أجل الإثراء أو تحصيل النعم الفانية ، أي حينما يكون ضرورياً للمحافظة على البقاء ، أو لتحقيق الخلود والانتصار على الأخطار ، يسمع الناس فجأة صوت الساعات الهاربة ، ويدركون قيمتها التي لا تعوض ، ففي هذه الساعات لا تهم الناس الثروة أو السعادة أو الألم ، وإنما الساعات نفسها . فيتحدثون حينئذ عن ساعات العمل ، فهي العملة الوحيدة المصقلة التي لا تبطل، ولا تسترد إذا ضاعت ، إن العملة الذهبية يمكن أن تضيع ، وأن يجدها المرء بعد ضياعها ، ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة ، ولا أن تستعيدها إذا مضت [1].

4 – العوالم الثلاثة للحضارة :

4 – 1 : عالم الأشخاص :

وفي معالجة هذا المحور ينطلق مالك بن نبي من زاويتين مختلفتين الأولى تتعلق بموقع الإنسان ، وعلاقته بمجتمعه ، والثانية تتعلق بالإنسان ذاته . فالفلسفة التي يقوم عليها هذا المحور تنطلق من صرورة إيجاد مناخ اجتماعي متلاحم ، ومنسجم ضمن

[1] – نفس المرجع ، ص 133.

شبكة علاقات قائمة على التفاهم والرغبة في مساعدة الأخر ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال تحقيق ما نصبوا إليه في ظل مجتمع يسوده التفكك والانحلال . [1]

يوجهنا ابن نبي في هذا الصياغ إلى الفكرة التي انطلق منها أساسا لتجسيد أي فعل حضاري ، اي الفكرة الدينية فهي بوسعها القضاء على الشوائب التي تساهم في تفتيت المجتمع ، وتثبيت عامل التواصل ، والانسجام ، والتواؤم الخلاق وهنا يبرز الدور المهم لعنصر الدين ،" فلا يمكن تصور انطلاقة ما ، أو انبثاق حضارة من وسط اجتماعي متهالك ، ومفكك يحمل بذور تداعيه حتى قبل أن يولد ، ويضرب لنا مثلا في هذا الإطار بما فعله الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذي وضع نصب عينيه تحقيق التواصل ، والتراحم ، والتآخي بين المؤمنين كنواة أولى لمجتمع صالح ، ناجح " كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا " – حديث شريف – فالتجربة أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أنّ من أسباب تلاشي كثير من الحضارات ، غياب الانسجام بين مكوناتها المجتمعاتية عقيدة ، وتقليدا ، ونمط حياة ، وهو ما يجعلنا نقف وقفة تقدير لما وصل إليه مفكرنا في هذا المحور ، فالمعركة كل المعركة هي البناء المجتمعي القائم على التكامل ، والتفاعل الايجابي ، وكل بناء يلغي من حساباته هذا العامل ، محكوم عليه بالتداعي والانهيار. وهاهو ابن نبي يذكرنا بالحديث الشريف : " توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعت الأكلة على قصعتها ، قيل أومن قلة يومئذ يا رسول الله ؟ قال : لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل "

فالمشكلة أساسا ليست في الكثرة بقدر ما هي قوة اللحمة والرابطة التي تعصم المجتمع من الانحدار المفضي إلى الهلاك ، لقد كان هذا الحديث ضربا من التنبؤ والاستحضار استحضار صورة العالم الإسلامي بعد أن تتمزق شبكة الاجتماعية ، أي عندما لا يعود مجتمعنا بل مجرد تجمعات لا هدف لها كغثاء السيل العلاقات.

[1] – محمد شاويش ، مالك بن نبي وشروط النهضة ، مجلة التبيين، العدد 19 ، ص 91.

فالفرد الذي تقوم عليه الحضارة لا ينبغي أن يكون فردانيا في تفكيره ، وفي تكوينه وفلسفته ، و إنما يجب أن يدرك تمام الإدراك انه ضمن نسيج اجتماعي قاصم على التكامل ، و التفاعل ، والإنتاج فالشمولية في مفهومها الايجابي هي الرصيد الذي يستطيع المجتمع من خلاله تأكيد ،وتعزيز قدراته العلمية ، والعملية والإنتاجية التي تصب في متون التفعيل الحضاري المنسجم .أما الجانب الثاني فهو ذلك المتعلق بالفرد ذاته ككيان له مميزاته ، وقدراته ومعتقداته ،وكوامنه ، وهذا العنصر أو الجانب هو الذي ينفذ من خلال إبراز دوره الحقيقي والفاعل ، والثقافة هي المحيط الذي يصوغ كيان الفرد ويقدم له الروابط الاجتماعية [1].

كما يدخل في هذا التركيب مجموعة من العوامل النفسية ، والبيولوجية التي تبحث عن فضاء يحقق له ما يرغب في تفريغه أو إفضائه ويعطي لها هامشا علميا محفزا ومنشطا كغطاء علمي مشروع بما يتوافق والفلسفة المعتمدة ، والموجهة لمسار البناء الحضاري الذي يقوم عليه نظام المجتمع كوحدة إنتاجية لها خاصيتها . ولقد وقف ابن نبي مطولا عند هذا المحور ، وكرس له كل اهتماماته لان البداية تنطلق من هنا ، فالمجتمع المبدع الخلاق يقوم على فلسفة سد الثغرات المؤدية إلى الهاوية ، نجد النواة الأولى للمجتمع الإسلامي المبني على التراحم ، والانسجام والتكافل ، حيث كان من نتاج ذلك قيام حضارته الكبرى في ظرف زمني قصير بعد مرحلة وهن وضعف .

فالأمثلة كثيرة أهمها ما عرفته الدولة العباسية أيام انحطاطها من تفكك ، وتناحر، وشيوع للجريمة والفاحشة ، وغياب العدل ، وهو ما عرفته الدولة العثمانية في أيامها الأخيرة ، لان فلسفة الكيان الاجتماعي تلاشت ، وأدت إلى تدهور العلاقات ، وغياب الانسجام و الشعور بالمسؤولية الاجتماعية فكان من الطبيعي اندثار هذه الدولة في

[1] – نفس المرجع ، ص 83

غياب وتراجع الوازع الديني الذي كثيرا ما أسهم في تجديد ، وبعث هذه الأنسجة الاجتماعية مرتبطة ببعضها البعض ، والنتيجة في النهاية واحدة .

3-2 : عالم الأفكار :

وعالج بن نبي هذا المحور من زاويتين ، احدهما مرتبط بالمحور السابق الذي يدخل في تركيب شخصية الفرد الذي يعتبر مفتاح الحضارة تمثل البواعث الدينية التي تعتبر مرجعا لا يمكن الحياد عنه ، أو اقفاله ، أما الثاني فهو الداخل في القدرة على الاكتساب ، ومدى ما تقدمه الفلسفات العلمية ، والثقافية من محفزات للطاقة الاستيعابية للفرد – المشروع – يدخل في هذا المنحنى أيضا المكتسبات اللصيقة بمستوى الفرد ، والمميزة له ، غير أن الثقافة ليست هي الخبرات العلمية دائما ، فهي تختلف من مجتمع إلى مجتمع ، أما العلوم والخبرات العلمية فان لها نقاطا ، وأسسا ، ونظريات مشتركة ، وان اختلفت وسيلة ، أو طريقة اكتسابها من منهج إلى أخر إلا أن التجربة العلمية في الحالتين لها نفس البعد ، والنتيجة .[1]

فالإقلاع النموذجي يكون من الداخل بدءا بذاتنا ، وتركيباتنا النفسية و الشعورية التي ينبغي أن تتغير ، وتحيد عن منحناها السلبي نحو الايجابية المكملة ، والمتممة لأجزائها بغية تجسيد الكل ، انّ الشعور السائد بالإحباط المولد لتفاسير ، وأراء تصب كلها في نطاق الخمول ، و البحث عن الرجل المنتظر ، أو النظام الاقتصادي المنشود ، أو السياسة المطلوبة ، كلها مجرد نزوات لا تقدم ولا تؤخر ببساطة لان المشكلة الأساسية فينا ، لا في فلسفة الأنظمة و النظريات الاقتصادية ، ومادام المشكل كذلك ، فلن نصل ولو نهجنا كل المناهج الاقتصادية ، والسياسية المتألقة في العالم ، بل إننا نضيع وقتنا سفها ، وكذبا على أنفسنا ، وذواتنا الواهمة ، المتشبثة بأولوية من فراغ ، يقول محمد

[1] – مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ،المرجع السابق ، ص65

شاويش : " ومن هنا فان مجتمعنا بحاجة إلى ثورة نهضوية سليمة داخلية تأتي من أسفل لا من أعلى ، وهي بلا شك ان قامت ستجبر البناء الفوقي على ان يتماثل معها وهذا معنى الحديث الشريف : " كما تكونوا يولى عليكم " .[1]

فمالك بن نبي ألح إلحاحا شديدا على ان نقطة البدء في كل مسار لها أبعاد حضارية تنشأ من مدى وعي الإنسان لرسالته ، ودوره في الكيان الاجتماعي الذي يحيط به في نسق متفاعل بعيدا عن الانعزال ، أو الفردانية المفرغة لإنسان من خاصيته الفاعلة ، وقيمه الاجتماعية المبنية على ثقافة ناجعة ،هنا يضيف ابن نبي فكرة أخرى تتمثل في ضرورة أن نكيف قدراتنا على تقنية إيجاد البدائل والحلول بدلا من حصرها في زاوية واحدة تفضي إلى صدمة لسنا بمنأى عنها ، ففلسفة " الرجل الوحيد " التي تبنتها الكثير من الأنظمة العربية كانت وابلا ، وشرأ ، فبمجرد ذهاب أو وفاة هذا الواحد تتهاوى الأمّة ، وكان هذا الفرد ذاته هو المشروع الحضاري بعينه . والمؤكد هو إن استمرار الفكرة ، وفعاليتها وهو المؤشر الحقيقي والوحيد على مدى قوة ، وامتداد هذه الحضارة ، أو تلك ، وليس من العلمية ربط مصير امة ، أو مجتمع بشخص ، بمجرد نهايته المحتومة ينفرط العقد ، ويتهاوى البناء ، لقد ربط مالك بن نبي بين هذين الوجهتين على فرضية التكامل ، غير أن فلسفة الفكرة قائمة ومستمرة كشرط لبروزها ، فهي مسار لا منتهي ومتجدد في نفس الوقت بما يخدم التحولات الكبرى و المعطيات الراهنة التي يتفاعل معها المشروع الحضاري ، ويقتضي المشروع النهضوي من مرونة واكتساب للمبدأ الأساسي كفكرة ، وكمنطق من قبل الفرد ، كالمبادئ والقيم والأفكار التي يجب أن يكون الفرد وسيلة لتكريسها ، بعد استيعابها منتجا ، لا استعابا جاهزا ، فالجاهزية لا تخدم المبدأ ، ولا تتسع لاستخدام العقل ، وبالتالي تهميش الخلق والإبداع ، فالأصل ليس الحل ، انما التقنية وطريقة التحليل وفق منهج سليم ، وأسس علمية مدروسة ، مما يدعونا إلى

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، المرجع السابق ،ص 158

التركيز على أهمية المكتسبات الثقافية التي تنمي هذه الصفات ، وتوفر لها المناخ المناسب الذي يربط بين أجزاء التركيبة السوسيو–ثقافية للإنسان المتجدد ،لأن " دور الثقافة إنما يتمثل على وجه الدقة في خلق هذه اللحمة الاجتماعية أولا ، وبالذات ، فهي الاتون الذي تصهر فيه كل العناصر الأساسية الداخلة في تركيبة المشروع الحضاري الذي منطلقه ، ومبدؤه الفرد في نطاق الجماعة . وتحتل الثقافة مرتبة رئيسية في تكوين الفرد وبناء شخصيته ، فهي الرحم الذي تنمو فيه أفكاره ، وتطلعاته ، والذي تتحدد فيه قيمه وأهدافه .. هي التي تحقق التوازن في عالم الإنسان الداخلي ، وهي التي تعلمه كيف ينخرط في الجماعة ليؤدي دوره من خلالها بشكل متكامل دون أفضليات ، فالثقافة تنمي الجانب المعنوي في الإنسان والمجتمع بمستوى متوازن كما ينمو الكائن الحي بكل أعضائه في وقت واحد "[1].

وعموما فان التركيبة الفكرية للفرد الواعي ينبغي أن تحقق الانسجام بين ما اكتسبه الفرد من قيم ، ومبادئ ، وعادات ، وبين ما يمكن أن يكتسبه من خيرات ، ومعارف مع إيجاد الفضاء الذي لا يتناقض مع هذه المعطيات حتى لا نخلق ذريعة للفشل ، ولا يحدث الانفصام المفضي إلى تلاشي الأهداف المرسومة مسبقا ، وهو ما يثبته واقع الأمة العربية اليوم .

3–3 :عالم الأشياء :

لقد وصل المشهد الحضاري في مرحلة تكوين عالم الأشياء إلى أخر مقتضيات الاقلاع والنهضة – نظر بن نبي – ولابد عندها من منطق عملي رأس ماله الفاعلية اللازمة ، والمفروضة في نفس الوقت " اننا نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من اللافاعلية في أعمالنا إذ يذهب جزء كبير منها في العبث ، والمحاولات الهازلة . وإذا ما

[1] – مالك بن نبي ، تاملات ، دار الفكر ، دمشق ، 1979، ص 221.

أردنا حصرا القضية ، فإننا نرى سببها الأصيل في اعتقادنا ، الضابط الذي يربط بين العمل ، وهدفه ، وبين سياسة ، ووسائلها ، بين الثقافة ، ومثلها ، بين فكرة وتحقيقها ، فسياستنا تجهل وسائلها وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا "[1] .

فالحضارة تكوين وبناء وليست تكديسا كما يقول ابن نبي " ان علينا أن ندرك بان تكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة ، فالحضارة هي التي تكون منتجاتها ، ليست منتجات هي التي تكون النتائج ، وليس العكس ، فالغلط منطقي ، ثم هو تاريخي لأننا لو حاولنا هذه المحاولة ، فإننا سنبقى ألف سنة ، ونحن نكدس، ثم لا نخرج بشيء "[2].

ان الثقافة المدعمة للإنسان المكيف مع مقتضيات المرحلة ،يفترض أن تكون مصبوغة بصبغة المجتمع الذي تنطلق منه ، ومطبوعة بشخصيته حتى لا تنتج ما لا يتلاءم والخاصية العامة للمجتمع ، أو المحيط الذي نعيش فيه فالشخصية الإنتاجية مرادف كمي لمقتضيات النوعية ، والمنطق العملي ، وهذا يجعل فعل التكوين ، الإنتاج ، الإبداع الصناعي أمرا ممكنا ،ومتوقعا في أي حقبة من حقبات البناء ، والممارسة الإنتاجية المنبثقة عن مرجعيات لها أصولها ، ورصيدها ، وقواعدها التي تقوم عليها ، كمبدأ ثابت لا يتغير ، ولا يحيد ، ولا يتأثر بما تحمله الحضارات الأخرى ، بل يؤثر فيها إذا ما تمسك الفرد المنتج بخاصيته ، وأسلوبه في العمل ، وفلسفته في البناء ضمن الحركية العامة لحضارته ، فالحضارة جوهر ممتد وفضاء عملي لتكريس ، وترجمة الانسجام الحاصل بين مجموعة الأفراد، والمعطيات تتحرك من منظور شامل ومستتب وحدة ، وهوية ، وأفاقا وتواصلا .[3]

---

[1] – نفس المرجع ، ص 125

[2] – نفس المرجع ، ص 162

[3] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، المرجع السابق ص 158.

لقد وضع مالك بن نبي لهذا المشروع الضخم محاور ثلاثة يكتمل بتفاعلها البناء ، ويتجسد حلم الأمّة في إستعادة الدور العالمي لهذه الحضارة التي لا تزال تمثل المرجعية لكثير من الدول بما فيها الدول الغربية ، فلكي نصنع التاريخ ، ونمارس حقا المشروع في التحضر، لابد أن نقف عند كل محور من المحاور ونعطيه ما يقتضيه من متطلبات وظروف ، وفق مناهج علمية مدروسة مؤكدة النتائج ، فالنجاعة مطلوبة ، لأن المشروع مشروع أمّة بكاملها ، وليس مشروع فرد ، أو جماعة ما فقط ، لذلك كان لزما أن تحدد الأهداف وتدرس بعمق ، لتتطابق النتائج مع المقدمات ، وإلا كان عملنا ناقصا مشوها محدود الفكرة ، والمنهج والمسار .

وصناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث :

- تأثير عالم الأشخاص .
- تأثير عالم الأفكار .
- تأثير عالم الأشياء .

لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة ، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إديولوجية من عالم الأفكار يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص . وكما أنّ وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة ، فإنّ توافق هذه الوحدة مع الغاية منها وهي التي تنسجم في صورة حضارة – يعد ضرورة أيضا " [1].

[1] – مالك بن نبي ، في مهب المعركة ، ص164.

خلاصـــــــة :

إن الأفكار هي المحرك الأساسي في بناء الحضارة ، فالحضارة يصنعها تاريخ الإنسان وهذا الأمر مرهون بمدى الانسجام بين النمط الفكري الذي يحكم هذه الحضارة عبر التاريخ وبين الطاقات المتوفرة التي يمكن توفيرها لتنفيذ الجانب العملي ، وصناعة التاريخ وبين الطاقات المتوفرة التي يمكن توفيرها لتنفيذ الجانب العملي ، وصناعة التاريخ عند مالك بن نبي تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث عالم الأشخاص وعالم الأشياء وعالم الأفكار ، وهذه الثلاثة لا تعمل متفرقة بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج اديولوجية من عالم الأفكار ، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء ، من اجل غاية يحددها عالم الأشخاص كما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فان توافق هذه الوحدة مع الغاية منها ، وهي التي تنسجم في صورة حضارته ، يعد ضروريا واعتبر مالك أن أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا ، بل يجب أن تنسجم الأفكار والعواطف والأقوال والخطوات بمع ما تقتضيه المرحلة التي فيها امتنا . وقد حدد الدورة الحضارية بثلاث مراحل أولها مرحلة الروح وفيها يعتنق إنسان ما قبل الحضارة الفكرة الدينية ويتفاعل معها فينهض والثانية مرحلة العقل وتبلغ فيها مرحلة الحضارة مداها ، فيها تحبوا الروح قليلا ويسيطر العقل وتبدأ الغرائز في الظهور وأخيرا مرحلة الغريزة حيث تظهر على حساب الروح والعقل وتنحدر الحضارة نحو الأفول ، وحسب بن نبي الحضارة لا تستورد ، وإنما هي عبارة عن إبداع ، وليس تكديسا ولا جمعا لركام من الأشياء ، وإنما هي تركيب للعناصر الثلاث إنسان ، تراب ، وقت وهذه المعادلة الشهيرة التي بين فيها رأس مال الحضارة وهي : الحضارة = إنسان + تراب + وقت ، وانه لا يتم التفاعل بين العناصر الثلاثة إلا بتدخل مركب معين هي الفكرة الدينية ، وانطلاقا من هذه المعادلة يتضح لنا أن المنتج الحضاري لأي شعب من الشعوب هو المادة الأولى التي يقوم عليها استمراره وأمنه القومي ، وبقدر ما يملك

من طاقة بشرية فعالة وإدارة طبيعية للبقاء وقدرة على التفاعل المنتج الحضاري وامتزاجه بعقيدة راسخة تضمن تماسكه ووفرة عطائه ، ويرى ابن نبي أن التحدي الذي يواجه الأمة اليوم ذو جانبين :

* الوعي بالأفكار السابقة ، خاصة ان استيراد المنتج الحضاري لا ينتج حضارة .

* العمل على الاستفادة من المنتجات العربية ، وذلك ب :

- بناء الإنسان الواعي الحامل لهمومه .
- توفير الشروط الملائمة لاستغلال الأراضي والاستفادة منها .
- استثمار الزمن .

الفصل الرابع

مبادئ التوجيه الثقافي في صناعة الحضارة

الفصل الرابع

مبادئ التوجيه الثقافي في بناء الحضارة

تمهيـــــد

1. التوجيه الأخلاقي
2. التوجيه الجمالي
3. المنطق العملي
4. التوجيه الصناعي (الفني)

إستخلاصات

تمهيـــــد :

حسب ما جاء به مالك بن نبي لاضاح وظيفة الثقافة بالنسبة للحضارة ، بأنها ذلك الدم في جسم المجتمع ، يغذي حضارته ، بنقطة تحول في مسار الثقافة والحضارة الإسلامية نحو الأفضل بفكرة التوجيه الثقافي السليم لتحقيق الغاية المنشودة ، فعملية التوجيه تتحدد بما يحتويه المجتمع الذي يتلقى فيه الفرد التوجيه لينخرط في شبكة علاقاته فالإنسان إلى جانب كونه يشرب ويأكل وينسل ويكافح من أجل استمرار نوعه هو أيضا يجب أن يراقب هذه الأنشطة ويوجهها لغايات تحقق له تقدمة .

فعندما توصل بن نبي أن الثقافة عامل فعال في العملية الحضارة ، إقترح بذلك برنامجا متكاملا ليضع المجتمع على عتبة دورة حضارية مدروسة ومخطط لها من خلال توجيه المبادئ الأربعة :

- التوجيه الأخلاقي .
- التوجيه الجمالي .
- المنطق العملي .
- التوجيه الصناعي .

1- التوجيه الأخلاقي :

الأخلاق عند مالك بن نبي مرتبطة بالمجتمع ، وبهذا الخصوص كتب قائلا : " لسنا هنا نهتم بالأخلاق من الزاوية الفلسفية ، ولكن من الناحية الاجتماعية ، وليس المقصود هنا تشريح مبادئ خلقية ، بل أن نحدد قوة التماسك الضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية "[1].وهنا نفهم بأن الأخلاق تعتبر مرادفا لعمليات تكوين الروابط بين الأفراد في المجتمع .فالثقافة في نظره لا يمكن أن تكون أسلوب الحياة في مجتمع معين إلا إذا اشتملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبطا بهذا الأسلوب ، فلا يحدث فيه نشازا في سلوكه الخاص ، وهو يرى أنه " إذا دققنا النظر في هذا العنصر فإننا نرى أنه لابد أن يكون خلقيا "[2]. فلو اتخذنا من المبدأ الأخلاقي مقياسا يوضح لنا بعض الظواهر الاجتماعية كشبكة العلاقات الاجتماعية لوجدنا أنها في أي مجتمع كان مهما كانت مبادئه . لا تقوم إلا على أساس أخلاقي . وهي شبكة لا تختل إلا إذا اختل المبدأ الأخلاقي باعتباره المسؤول عن تنظيم العلاقات بين الأشخاص على أساس ما يتناسب مع المصلحة العامة لمجتمع معين. يمكن القول بأن الوظيفة الأساسية للمبدأ الأخلاقي هي بالضبط بناء عالم الأشخاص ، الذي لا يمكننا أن نتصور بدونه أي وجود لعالم الأشياء وعالم الأفكار ، ومن هنا تتضح أهمية الكبرى في تحديد الثقافة في مجتمع ما.

" فالمجتمع لا ينتج تلقائيا القيمة الخلقية ، إنما التركيب بين العناصر وتقوية العلاقات إنما يتم بحدوث حادث غير عادي كظهور الديانات "[3] ، يعني أن التوجيه الأخلاقي هو تأثير العقيدة الدينية في مجال السلوك البشري إذ هي عنصر أساسي في الثقافة ، من خلال تأصيل غريزة الحياة في الجماعة ، بحيث يستخدم الإنسان هذه الغريزة ويهديها ويوظفها

[1] – مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، المرجع السابق ، ، ص 79 .

[2] – مالك بن نبي ، تأملات ، المرجع السابق ، ص 148 .

[3] – مالك بن نبي ، ميلاد المجتمع ، المرجع السابق ، ص 48 .

بروح خلقية سامية ، وهذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض تأتينا مع نزول الدين ، ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض ، وقال الله تعالى :{ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } سورة الأنفال :الآية 63 .

ويتحدد مفهوم الفكرة الدينية في فكر مالك بن نبي من خلال التعريف الذي قدمه لنا في كتاب " شروط النهضة " . هذه الفكرة التي تترك على الفرد طابعها المميز فتوجهه نحو أهداف سامية " ...من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها ، وتوجهه نحو غايات سامية ، فالحضارة لا تنبعث كما هو ملاحظ إلا بالعقيدة الدينية وينبغي أن تبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها " [1]. وبالتالي فإن كل الحضارات كانت نتيجة لتجسيد الفكرة الدينية أخذت موقعها في نفوس الأفراد الذين تفاعلوا معها ، ومن هنا نستطيع أن نضبط تعريفها فيما قدمه بن نبي " بأنها فكرة تقوم في أساسها على توجيه الناس نحو معبود غيبي ، ولو كان غيبيا من نوع زمني ، أي في صورة مشروع اجتماعي بعيد الأمد مثل بناء مجتمع جديد يضع حجره الأول جيلا تواصل بناءه الأجيال المتتابعة " [2].

إذا الفكرة الدينية من خلال هذا التعريف هي كل عمل من شأنه أن يوجه الإنسان لبلوغ هدف سامي يساهم فيه مجموعة من الأفراد يخضعون لسلطة هذه الغاية الذات إلى مستوى القيم التي ينشدها الأفراد في مستقبلهم حيث يكون " هذا المشروع هو المثل الأعلى الذي يحرك طاقات هؤلاء لتحقيق عمل مشترك فلما كان الدين الكتب السماوية صادر عن معبود غيبي فإنه يتميز عن كل البشر وما ينتجه فكرهم بالكمال المطلق والكلي[3] " . وقد يأخذ الدين بعدا آخر غير المعبود السماوي ، فيتمثل في فكرة أو مشروع وضعي ، وبالتالي يحدد بدوره غاية سامية يجمع الأفراد من حولها .فالفكرة الدينية تتعلق بكل مشروع يهدف إلى التغيير ،

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، المرجع السابق ، ص 75 .

[2] – نفس المرجع ، ص 75

[3] – جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، المرجع السابق ، ص 572 .

بحيث تكمن وظيفتها في تأسيس كيان الأمة ، وتحديد هويتها عن غيرها من الأمم ، كما أنها تقوم ببناء شبكة العلاقات الاجتماعية .

إذن فوظيفة الدين الاجتماعية تتمثل في عملية تركيب عناصر الحضارة فتعمل على جعل الفرد يتحرك في إطار جماعي ، وتحول الوقت من كونه مدة زمنية تعد بالساعات ليصبح وقتا اجتماعيا يفسر بساعات العمل ، ويحول التراب إلى خدمة هذه الحياة الاجتماعية ذات المتطلبات المتعددة. ومن هنا يتضح أن " للدين جانبين في حياة الإنسان ، هما:

– الجانب الغيبي: وهو الذي يعبر عن العلاقة بين الإنسان وربه ، وهذا هو التغيير الاجتماعي لما له من دافعية ، وترجع قوته للأيمان الذي به يتم خلق الحركة الاجتماعية والتي نترجمها من خلال أفعال الأفراد.

– الجانب الاجتماعي : وهو انعكاس علاقة الإنسان بربه في الحقل الاجتماعي "[1]. وعلى هذا تكون العقيدة " (الدين) أيمان قلبي يدفع بفيضه حركة العقل واليد اتجاه الآخرين ، لتستقيم بمسيرة المجتمع خطأ تتجه إلى الله الواحد الأحد[2] " .

والترابط الحاصل بين الجانبين يظهر في هيئة تمثلها الحياة الاجتماعية ، فالجانب الثاني ما هو إلا نتاج للأول ، وتظهر صورته بحيث يكون العمل بقدر درجة الأيمان الغيبي ، وهذا ما أكده بن نبي بقوله: " فكأنما قدر الإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة ، إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياة الأرض "[3]. بمعنى أن البعد الغيبي هو المسئول عن بلوغ الحضارة التي بدورها تتجسد في واقع العلاقات الاجتماعية.

فالفكرة الدينية بكل ارتباطاتها بالعالم الغيبي تعطي صورة واضحة وقوية عن المجتمع وعلاقات الأفراد فيما بينهم ، وتزداد هذه القوة بتمسكها بالمعتقد الغيبي ، بحكم كونها نتيجة

[1] – نورة خالد السعد ، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي ، ص 110

[2] – عمر كامل مسقاوي ، وحدة الحضارة ، ط 1 ، دار الفكر ، دمشق ، 1988 ، ص 127 .

[3] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، المرجع السابق ، ص 75 .

للعلاقة بين الله و الإنسان ، أي شبكة العلاقات الاجتماعية هي نتيجة لشبكة العلاقات الروحية. وبالمقابل يؤدي ضعف العلاقة الدينية على ضعف وتمزق شبكة العلاقات. وإن كان التمزق الذي تعانيه مجتمعات العالم الإسلامي نتيجة لفقدان الفكرة الدينية فعاليتها وتأثيرها في الأنفس وفي الأفراد ، فلا بد من إعادة تفعيل دورها الاجتماعي .

يرى ابن نبي أن للعنصر الديني أهمية كبيرة في تطور المجتمعات ، أي من خلال تحويله للطاقة الاجتماعية إلى نشاط جماعي مشترك ، وأنه يتدخل مباشرة في تحديد سمات الشخصية ، هذا من جهة ومن جهة أخرى يظهر تأثيره بطريقتين مختلفتين إذ يدفع بالفرد في حالة الفعالية للمساهمة في النشاط الجماعي المشترك. إلا أنه عند تحلله ينشئ جوانب مرضية في شخصية الفرد تعيق نشاطه المشترك وتجعله مستحيلا . " فالدين يدخل مباشرة في الشخصية التي تكون الأنا الواعية في الفرد ، وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذه الأنا لدى الفرد وكان هذا النشاط لدى الفرد سببا في وجود النشاط المشترك للمجتمع خلال التاريخ " [1].

ولا بد أن هذا يعني بأن العنصر الديني حينما يؤدي وظيفته الاجتماعية يقوي شبكة العلاقات الاجتماعية ويشدها ، وحينما ينحل ويفقد فعاليته الاجتماعية فإنه يؤدي إلى تحلل هذه الشبكة وتمزقها . مما يعني أن للدين تأثير كبير وأهمية قصوه في عملية البناء الحضاري ، ويمتد هذا التأثير على حياة الفرد إلى تفعيل علاقة الإنسان بالوقت من جهة وبالتراب من جهة أخرى .فالوظيفة التركيبية للدين تظهر في كونه " يؤدي إلى كافة العمليات التغيرية الاجتماعية المهمة في الإنسان والوقت والتراب ، وما يتبعها من معطيات نفسية تتحقق من خلال حركة المجتمع وانتقاله من مرحلة السكونية إلى مرحلة الديناميكية الحضارية[2] " .

[1] – مالك بن نبي ، ميلاد المجتمع ، المرجع السابق ، ص 72 .

[2] – نورة خالد سعد ، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي ، المرجع السابق ، ص 273 .

كما أن سبب اعتبار الدين عاملا أساسيا من عوامل التغيير للوجود الزمني والنفسي للإنسان ، يمكن أولا في ارتباطه بالحاجات المادية التي يسعى إليها الإنسان ، أما السبب الثاني فيرجع إلى كونه ذا طابع معنوي لذا فحاجته تكون ذات طبيعة روحية ، وهذا هو جوهر حقيقة الإنسان ، نظرا للترابط والتداخل القائم بين الجانبين السلوكي والنفسي .وبالتالي فإن أي مشروع نهضوي يهمل أحد الجانبين المكونين لجوهر الإنسان الذين يدلان على حقيقة سيكون مآله الفشل لذلك فإن إعادة تفعيل الدور الاجتماعي للدين أمر ضروري لإحداث التغيير على مستوى الفرد والمجتمع.

إذ أننا نرى أن كل ما يغير النفس يغير المجتمع ، ومن المعلوم أن أعظم التغيرات وأعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار فكرة دينية .ولو أننا استطعنا أن نتتبع دقة عمل الفكرة الدينية إبان ولادتها فربما أصابتنا الدهشة لما تشهده في عملها من غير جوانب متوقعة .وهذا ما يفسر " دخول الدين في الجدلية النفسية والاجتماعية في ذات الفرد وبينه وبين المجتمع في الدورة الحضارية ، وأن الدين هو منشئ الحضارة "[1]. بل هو الذي يعطي شرارة الانطلاق لتدخل الحضارة في التاريخ.

وبناء على ما سبق يؤكد مالك بن نبي أن هناك أمران أساسيين ، يمكن لأي مجتمع مهدد بالنهيار والغرق أن ينقذ نفسه بهما ، وهما الدين والحضارة ، فأما الدين أو العقيدة فهي الوسيلة التي يتم بواسطتها سير سفينة الحياة وسط الأمواج المتلاطمة وسط العواصف الهوجاء بكل أمان. وهذا يستدعي ضرورة عمل المسلم على التفكير والتوجيه السليم لاختيار المسوغات الملائمة لخلق التوتر في هذا المجتمع من جديد ولا شك أن أسمى المسوغات هي تلك التي ترتبط بالبعد الديني لأنها تتضمن الكمال المطلق .وتحقيق ذلك يقتضي ضرورة إرجاع الفعالية والقوة الايجابية إلى العقيدة " فالمسألة لا تتمثل في تلقين أو إعادة تلقين المسلم عقيدته ، ولكنها تتمثل في إعادة تلقينه استخدامها وفعاليتها في الحياة إلا أن

[1] – نفس المرجع ، ص284

المصلحين قد أغفلوا وضع هذه المشكلة " [1]. في حياتنا اليومية أصبحنا نرى الكثير من مشاكل تأثر البعض بفكرة إعادة تلقين المسلم عقيدته ، لأن الأمر فهم بطريقة أخرى .لأنه بدلا من أن يستعان بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وأخلاق صحابته كمثل عليا بتكييفها مع ما تقتضيه مجتمعاتنا في عصرنا الحاضر ، أصبحنا لا نرى سوى تقليدا أعمى لبعض الممارسات اليومية التي حملتها السنة عنهم من طرف بعض الأفراد ، إلى جانب التفسير الخاطئ للآيات القرآنية ما سبب أغلاطا كبيرة في تطبيق أحكامها. بشكل لا يقدم بقدر ما يؤخر إذ نجد أن بعض الإخوان الذين يدعون أنهم يطبقون الإسلام في حياتهم اليومية مثلا: يمنعون بناتهم عن الالتحاق بالمدرسة بعد سن العاشرة ، كما يحرمون على نسائهم مشاهدة التلفاز لأنه لا يجوز للمرأة أن ترى وجه رجل غريب عنها. وإن امتلكوا تلفازا فيديرون شاشته إلى الحيط ، ويلبسون القمصان الطويلة ويمتنعون عن لبس السراويل ولو في أيام البرد.كون القمصان أو الأثواب كانت لباس الرسول عليه الصلات والسلام وصحابته ، وينامون على الأرض بدلا من استعمال الأسرة أيضا لأن الرسول كان ينام على الأرض ، ونفس الأمر بالنسبة للكراسي والطاولات . ما يجعلهم في معظم الأحيان منعزلين عن باقي المجتمع. ثم إن هذا التعصب لكل ما يميز عصرنا عن عصر الرسول والصحابة جعل نفسياتهم كومة من المكبوتات التي تفوق طاقتهم لمعارضة موجات العصرنة بكل أشكالها ، فيؤدي بهم اعتقادهم في آخر المطاف إما إلى الرجوع إلى مسار مواكبة العصر بايجابياته وسلبياته ، وإما يؤدي بهم إلى انحلال أخلاقي بإشباع كل تلك الرغبات التي كبتت لمدة في أبسطها بأي شكل من الأشكال ولو كلف الأمر معارضة قيم الدين الإسلامي من أساسه. وكل هذا ناجم عن محاولة التطبيق السطحي للإسلام دون فهم عمقه .لأنه لو استوعب هؤلاء الدين على حقيقته لأدركوا أن تطبيق الإسلام لا يعني أن نعيد صنع البيئة التي أنزل فيها لكي نعيد فهمه ، فهم في هذه الحالة لا يدركون معنى الإسلام صالح في كل زمان

[1] – مالك بن نبي ، القضايا الكبرى ، المرجع السابق ، ص 123 .

وفي كل مكان ، وأنه دين أعظم وأصح من سجنه في مرحلة معينة من المراحل التاريخ الإنساني . ولو فهموا أن الدين الإسلامي لا يدعو إلى الرجعية والركود والجمود في حركة الحضارة والثقافة بل بالعكس فهو كثيرا ما دعا إلى التغيير نحو الأفضل والتقدم في كل المجالات ، لما حرموا مشاهدة التلفاز أو استخدام الأسرة . لأن التعبير عن رفض أو معارضة الحالة الآتية التي وصلت إليها المجتمعات لا يتم عن طريق محو المستقبل والحاضر باستحضار الماضي وسجن أنفسنا فيه لأن تفكيرا كهذا يجسد عدم فعالية الفرد وجمود تفكيره بأشنع صورة.

وإنما الأمر يتعلق بمحاولة إعادة النظر في الأشياء التي تقتبسها من مراحل تاريخية ماضية بأخذنا الأمور الايجابية التي تكون لنا المثل العليا كحسن الأخلاق والمعاملة بين أفراد ذلك المجتمع. والنظر إلى الدين لا كسيف يذبح كل محاولة تقدم وتطور ، بل كقانون ينظم سلوكنا ويوجهه وبرنامجا تربويا يعيد تشكيلنا بما يخدم مصلحة المجتمع ككل ويعيد شحن ذواتنا بالفعالية التي تجعلنا نعالج مشكلاتنا بمواجهتها لا بالهروب منها والاختباء منها في تابوت المجتمعات الفائتة.

والأمر لا يتوقف على هذا فحسب بل أصبحنا نعايش أيضا صورة أخرى من صور تدهور تلك العلاقة بين الفرد وربه التي من المفروض أن تكون قوية ، وهي ذلك الخلط والغموض في نظرة هذا الفرد المسلم إلى العلاقة بين الدنيا والآخرة التي يؤمن بها ، فهو إذا تذكر آخرته كان أشد الناس حرصا عليها من خلال إقامة الشعائر الدينية ، وإن هو تفرغ من عبادته غاص في ملذات الحياة الدنيا ومتاهاتها الملتوية المظلمة إلى درجة أنه ينسى آخرته ، كأن الفكرة الدينية لا تمارس فعاليتها إلا بداخل المساجد.

وأمام هذا الوضع ، لا يرى بن نبي الحل في تجديد علم الكلام الذي يبحث في الأدلة العقلية للدفاع عن العقيدة الإسلامية وإثبات وجود الله ووحدانيته ، وإنما يرى ضرورة تأسيس " علم جديد يعيد للعقيدة فعاليتها وقوتها الايجابية وتأثيرها الاجتماعي ، وفي كلمة واحدة ،

إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله ، بقدر ما هي أن نشعره بوجوده ، ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة " [1]. وهذا العلم الجديد ينبغي أن يحدث تغييرا جذريا أو انقلابا حقيقيا في الجانب النفسي للمسلم حتى يستطيع التخلص من مختلف العقد والرواسب الموروثة عن العهود الماضية . إذ لا يمكننا أن نحقق نهضتنا الثقافية وعودتنا الحضارية بإنسان مثقل برواسب الماضي ، بإنسان إن صح التعبير ، منهار ماديا ومعنويا ، ولا يتم هذا برأي بن نبي إلا " بعلم لم يوجد بعد ولو يوضع له اسم يمكن أن نطلق عليه " علم تجديد الصلة بالله " [2].

ومن هذا المنظور يجب على المسلم الشعور بالمسؤولية اتجاه مصير أمته ، وألا ينحصر عنده التقرب من الله في إقامة الشعائر الدينية ، بل يجب أن يشمل أيضا الاهتمام بشؤون مجتمعه بما يخدمه لا بما يهدمه . " ويكون ذلك من خلال الاجتهاد اليومي لأجل إصلاح حال الأمة وتوجيه أبنائها وتنبيههم لطبيعة المخاطر التي تواجههم ، والسعي لايجاد العلاج للأمراض الاجتماعية التي تعاني منها أمتنا ، والتي ما هي إلا حصاد أفعالنا غير القائمة على الأساس الصحيح " [3]. فالأيمان ليس مجرد مشاعر في الوجدان ، أو تصورات في الذهن ، لا ترجمة لها في الحياة الواقعية.

كما أنه يجب علينا أيضا أن نتجاوز مرحلة الجمود الفكري والعجز السلوكي من خلال الاستسلام للواقع المتردي ، بتبني القيم الأخلاقية المستوحاة من الدين الإسلامي ، لأنها وحدها الكفيلة بتحقيق ذلك الاستقرار الوجداني الذي أصبحنا نبحث عنه بأي ثمن ، بعد أن أكدت الفكرة الإسلامية فيما مضى صلاحيتها بطريقة موفقة حين أخضعت الطاقة الحيوية لدى البدوي العربي لنظامها الدقيق فجعلت منه إنسانا متحضرا.

---

[1] – مالك بن نبي ، وجهة العالم الاسلامي ، المرجع السابق ، ص 54

[2] – نفس المرجع ، ص 54

[3] – مالك بن نبي ، مجالس دمشق ، ص 139

ثم إن بن نبي قسم المجتمع تبعا لتأثير الدين فيه إلى أنواع:

ـ مجتمع ما قبل الحضارة : وهو مجتمع ينتمي إلى دائرة المجتمعات الساكنة أو البدائية التي تملك المادة الخام ، والمتمثلة في الإنسان والتراب والزمن ، فهي مجتمعات بسيطة ذات معالم ثابتة لم تتغير في حيز الزمن ، وما يميز إنسان هذه الفترة طابعه الفطري الطبيعي ، كحال المجتمع العربي في الجاهلية ، فكما يرى بن نبي فإن الوصف الذي جاء به القرآن الكريم يدل على أن الوثيقة في نظر الإسلام جاهلية ، " ذلك أن الجهل لا يغرس أفكار بل يقيم أصناما ، إلا أن امتلاك المجتمع العربي سمات عديدة : كالكرم والمروءة ، وازدهار بيئتهم بالأدب والشعر ، لم يجعل واقعهم الاجتماعي يتجاوز إطار القبيلة ، وقد قدم بن نبي العناصر المكونة للحضارة التي سادت العصر الجاهلي في أبسط الصور ، حيث كان عالم الأشياء في هذا المجتمع شديد الفقر ، وكانت أشياءه بسيطة كالسيف والرمح ، أما عالم الأشخاص فقد انحصر في القبيلة ، في حين نجد عالم أفكاره قد تمثل في القصائد الشعرية والمعلقات [1] " . لتكون هذه صورة قريبة من الحياة الاجتماعية آنذاك للفرد والجماعة ، تبرز فقرها إلى العنصر الديني الذي سيدخل إلى المجتمع الجاهلي ويغيره جذريا ، كما أن الجدير بالذكر هنا أن هذا المجتمع الذي تسوده البساطة إلى حد السذاجة أمدنا بسمات المجتمع قبل تحضره وخلوه من مقاييس الحضارة ." فطبيعة النظام الاجتماعي السائد في مثل هذه المجتمعات هي طبيعة ميكانيكية آلية ، خالية من كل عناصر التجديد والتطور ، هدفها الأساسي تلبية المتطلبات الغريزية المتعلقة بالنوع ، والتي تتمثل في نشاطات بدائية لحفظ البقاء [2] " .

– مجتمع الحضارة: إن هذا النوع أو هذه المرحلة من حياة الحضارة ، تتميز بدخول الدين إليها إذ يعمل على تغيير تركيبة المجتمع فيها وتغيير نشاطه ، فيتحول فيتحول بذلك من

[1] – مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، المرجع السابق ، ص 52

[2] – محمد بغدادي بأي ، التربية والحضارة ، بدون ط ، دار عالم الأفكار ، الجزائر ، 2006 ، ص 53

الحالة الطبيعية البدائية ، إلى حالة أخرى يطلق عليه فيها اسم " المجتمع التاريخي " ، فالفكرة الدينية أثرت على العوالم الثلاثة(الأشخاص والأفكار و الأشياء) لتتشكل شبكة العلاقات الاجتماعية (العالم العربي) ، حيث قدم بن نبي مكانة الروابط الاجتماعية التي تنشأ في عالم الأشخاص والتي تنعكس على العالمين الآخرين ، " فالعمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي والعمل الذي يغير الفرد من كونه فردا إلى أن يصبح شخصا وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزاعات اجتماعية تربطه بالمجتمع[1] " ، والمثال الذي يؤكد هذا القول هو نموذج المجتمع الإسلامي الذي انتقل من المرحلة البدائية إلى المرحلة التاريخية عند نزول القرآن الذي كان رمزا لميلاد حضارة جديدة ذات طابع إسلامي ، ما أحدث ميلاد عالم ثقافي جديد اقترن ظهوره بهذا النزول.

من خلال هذه المميزات التي استجدت في المجتمع ، نكون قد تقاربنا من العام الذي يربط العوالم الثلاث وما يربط الأفراد فيما بينهم ، " فكان العالم الثقافي الذي ظهر مع الفكرة القرآنية قد كان الحدث الوحيد والعلاقة السببية بين الحدثين القرآن والحضارة ، بادية بشكل صارم عبر تلازمهما. فالفكرة الإسلامية هي التي طوعت الطاقة الحيوية للمجتمع الجاهلي لضرورات مجتمع متحضر[2] " . لنجد أن المجتمع الجاهلي آنذاك كان فارغا من كل دلالة إلزامية نحو المجتمع ، فكانت الطاقة الحيوية لم تتكيف مع ضرورات الوجود الجماعي المنظم والهادف. فسيطرت القوى البيولوجية على الإنسان وغاب بذلك كل فكر عميق ونظر ناضج.

لقد ربط مالك بن نبي تكيف الطاقة الحيوية داخل المجتمع ببدء قوة الفكرة المحركة حيث يرى أن هذا التغير الذي يحدث على مستوى الطاقة يختلف في المجتمع الواحد بين فترتين فالمرحلة الأولى التي تسيطر فيها الروابط الروحية يزداد معها تكيف الطاقة حتى يصل إلى

[1] – مالك بن نبي ، ميلاد المجتمع ، المرجع السابق ، ص 31

[2] – مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، المرجع السابق ، ص 52 .

ذروته وهذا ما يفسره ظهور الإلزام الفردي بالجماعة في العصور الإسلامية الأولى ، وهذا ما عليه الحديث " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم " . فكان وقع الفكرة الدينية في بداية الدعوة أكبر من أي عصر يأتي بعدها وسيطرة الروح في المجتمع الإسلامي الأول (الصحابة) ، هو الصورة الناضجة لاستعاب معاني هذه الفكرة .

في حين نلاحظ فقدان سيطرة الروح على الفرد بدخول الأفكار المكتسبة وترك الفكرة الأصلية مكانها لمثل تلك الأفكار ، وهذا ما يفسر تناقص ذلك التكيف فتتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية التي أنشأتها الفكرة الدينية والتي كانت محصلة تفاعل بين العوالم الثلاث ، " ويعزى هذا التمزق كما ذكرنا إلى تمزق الشبكة الروحية التي تربط نفس المجتمع بالأيمان بالله " ضعف تأثير الفكرة الدينية[1] " فيتسم هذا المجتمع بميسم اللافعالية وهذا ما يمثل الفترة الثانية للطاقة الحيوية في المجتمع .إن انتقال المجتمع من النموذج البدائي البسيط إلى النموذج التاريخي تصاحبه جملة من التغييرات على المستوى البنائي للمجتمع بدخول الفكرة الدينية وهذا ما قسمه إلى ثلاث مستويات:

1. المستوى المادي(عالم الأشياء):إن الفكرة الدينية من قبل الإنسان البدائي الذي تميز بطبعه الفطري ، حيث كان تغييره للمجتمع منوطا بتغيير ما يملك من وسائل و إمكانيات لخدم الفكرة الجديدة ، " ومثال على ذلك اللحظة التي وضع فيها الأنصار والمهاجرون معا مواردهم لمواجهة الحاجات التي تتطلبها المرحلة المقبلة الجديدة[2] " .

2. المستوى الثقافي(الفكري):لقد أوجدت تلك الفكرة عديدا من المقاييس ، فكانت خصوصية المجتمع الإسلامي آنذاك بادية في أصغر سلوكيات الأفراد التي اكتسبوها من خلال تأقلمهم مع الفكرة الإسلامية ، كما تظهر في رموز المجتمع وعلاماته المميزة حتى نجد بن نبي يورد لنا أمثلة من النطاق الثقافي الإسلامي ، " كاستخدام الآذان مكان دق الجرس الذي كان في

[1] – مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي ، ص 55.56 .

[2] – نورة خالد السعد ، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي ، المرجع السابق ، ص 124 .

المجتمع ، ليس فقط لأداء الصلاة ، بل كان يعتبر رغم بساطته كوسيلة لاجتماع المسلمين أي رمزا ثقافيا إسلاميا .كما خلقت الفكرة الدينية سلوكا مميزا للمسلم عن غيره من الناس في محيطه الاجتماعي وفي امتلاكه لوسائله ، فنجد في ذلك آخر يرسخ هذا الطرح فيما ذهب إليه بن نبي من وسيلة إسلامية متمثلة في المنبر وكيف كيفه المسلمون بحسب حاجاتهم إليه ونهايتهم منه دون أن يكتفوا بكرسي الوعظ المسيحي[1] " . لتظهر خصوصية الفكرة الدينية الإسلامية في ذاتها وعلى كل ما تطالبه وما تؤثر فيه لتسلك به طريقا مميزا متناسقة ومنسجمة مع غايات التي حددتها وجعلت من الفرد يوفر لها محيط نموها وازدهارها.

. على المستوى النفسي و الأخلاقي : حيث تم إنشاء مراكز جديدة لاستقطاب الطاقة الحيوية فكانت " مراكز استقطاب الطاقة الحيوية تتركز حول مفاهيم جديدة ، أفكار جديدة ، نماذج مثالية لعالم ثقافي جديد كانت تتركز حتى درجة الانفجار وكانت تنفجر في مواقف مأساوية من نوع جديد[2] " .

ولقد سجل التاريخ الإسلامي من خلال هذه الطاقة المميزة لرجالات ذلك العصر لحظات من العظمة لم يعرف المجتمع العربي من قبل فنجد أمثلة هذه العظمة تتجلى في مواقف وأعمال المسلمين الأوائل ، كمثال بن نبي حول قصة حفر الخندق حيث جعلت المسلمون يبذلون جهدا كبيرا ، بل تآزرا في العمل المشترك لم تر له صورة قبلهم ، ولا أظن بعده ، فكانت الأعمال شاقة والوسائل بسيطة والهدف محقق ، ألا وهو صد موجة الجاهلية ضد أصوار المدينة ، لتترجم بذلك أيمان الأفراد في فكرهم واعتقادهم الراسخ بها ولو أدى ذلك بالتضحية بأرواحهم وكل ما يملكون ، " وهذا ما أكده النبي صلى الله عليه وسلم ، حينما كان يساندهم بقوله : " اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار و المهاجرين ، بينما كانوا يرددونهم : " نحن الذين بايعوا محمد على الإسلام ما بقينا أبدا " فهذا تذكير لبعضهم

[1] – مالك بن نبي ، وجهة العالم الاسلامي ، المرجع السابق ، ص 75 .

[2] – مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، المرجع السابق ، ص 72 .

التضحية تكون لتلك الفكرة التي ملأت العقول وسكنت الأجساد وهي أنه " لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله " فيسهل كل صعب لمن تدبر في معانيها وعمل بها ، جاء فيها[1] " .

من هنا نستشف قيمة ومكانة الفكرة الدينية في ضمائر الأفراد وفي سلوكاتهم التي طبعتها أخلاق الإسلام الحميدة ، فتكون بذلك طاقة حيوية في جسد المجتمع المسلم الذي سيبقى وفيا لمبادئها ومحافظا على مسار حركته تبليغا لحركتها.

إن ما تقدم يبرز الإطار العام الذي كان يحكم سلوكات الأفراد ويعطي لهم المبررات اللازمة لكي يستمروا في توحيد هدفهم ومسيرتهم التاريخية وحفاظا على توتر شبكة علاقاتهم الاجتماعية تكيف طاقاتهم لمصالح المبدأ السماوي.من هذا يؤكد بن نبي على " الدور الأساس والعقيدة للدين لإحداث التغيير الاجتماعي فالدين هو التغيير التاريخي والاجتماعي للتجارب عبر القرون ويعتبر في منطق الكون أساس جميع التغييرات الإنسانية الكبرى[2] " .

فالفكر الإسلامي ذا بعد أخلاقي عظيم ، حيث يراعي المبادئ الأخلاقية في تقصيه للحقيقة ، هذه الحقيقة المحكومة بمجموعة من الشروط النفسية الخاصة بالفرد المسلم وما تحمله من دوافع خفية تلعب دوارا كبيرا في تحديد سلوكه وتصرفه وتحدد مساره التاريخي أي أن الإسلام أرسى مجموعة من المبادئ والقيم التي عليها شخصية أفراد ، ولا يمكن أن نهملها في أي عمل نقدمه ، فهي حضارة مبنية على البعد الروحي أكثر من البعد المادي عكس ما نجده في الحضارة الغربية التي ترجع مقياس كل شيء إلى المادة دون الاهتمام بالمعايير والمبادئ الأخلاقية .

[1] – مالك بن نبي ، المرجع السابق ، ص 72 .

[2] – نورة خالد السعد ، التغيير الثقافي في فكر مالك بن نبي ، المرجع السابق ، ص 125 .

فابن نبي اهتم اهتماما خاصا ب الأخلاق في جانبها الاجتماعي والمتمثلة في " قوة التماسك الضرورية للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية ، هذه القوة مرتبطة في أصلها بفكرة الحياة في الجماعة عند الأفراد [1] " .

وعليه فإن المبدأ الأخلاقي يمثل عند بن نبي دستور المثل العليا والقيم الراقية المستمدة من جوهر الدين حيث يتم توجيه الطاقات الاجتماعية نحو الغايات السامية التي تخاطب ضمير كل فرد ، لتحول إلى طاقة حية يخدم بها المجتمع في كل أفعاله وسلوكاته . فالدين يصبح إلزاما داخليا إذا تعلق بالضمير ، وإلزاما خارجيا حين تطبق أحكامه . ولما تعلق الفعل الإنساني بالضمير وبالمثل العليا فإنه يستلزم النظر إلى التربية الأخلاقية التي تجعل من الفرد ينظم طاقاته ويضبط أهدافه . " فالتربية الأخلاقية هي المدرسة التي تحدد ضوابط الفعل الإنساني . فمن خلالها يتم القضاء على كل الرغبات الشخصية والنزاعات الغريزية التي لا تخدم المجتمع وتعارض الروح الاجتماعية أي أنها تذهب وتوجه السلوكات الفردية لمصلحة الجماعة فترفع مستوى الإنسان من ذلك المستوى المنحط المتعلق بالمطالب البيولوجية إلى مستوى حضاري يسوده التفاعل الواعي وتترجمه سلوكات الأفراد[2] " .

فالحياة الاجتماعية المتماسكة هي الحياة التي تصورها شبكة العلاقات الاجتماعية ، فإذا كانت هذه الشبكة متينة وقوية فإنها تدل على وعي الأفراد الذين يكونوها بوجود عالم أفكار ناضج وفعال ووجود عالم الأشياء التي تستخدم في هذا البناء الجماعي . أي " أن هؤلاء الأفراد مكيفون حسب مالك بن نبي وعملية التكيف هذه تستمد من وجود أفكار تمثل المبررات والعوامل التي تدفع الأفراد إلى العمل الجماعي ، وبها يتم خلق الوسائل التي تغطي الحاجيات المتعلقة بالمجتمع " [3] ، وبقدر ما يكون الإلزام الداخلي للدين (ضمير)في

---

[1] – مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، المرجع السابق ، ص 79 .

[2] – محمد البغدادي ، التربية والحضارة ، المرجع السابق ، ص 186 .

[3] – نفس المرجع ، ص 188

الفرد قوي وفعال تزداد شبكة العلاقات الاجتماعية قوة وفعالية أي يزداد توترها مما يجعله قادرا على تحمل مسؤوليته والقيام بواجباته.

فقد حاول بن نبي من خلال ما تقدم تحرير العقل الإسلامي بهذا الطرح ربقة الاجتهادات القديمة التي كانت وليدة بيئة معينة ، فكسر بذلك كل العوائق التي حدت دون النظر الواقعي والمعاصر للظروف التي تحيط بالفرد ، فبتت تلك الحركية داخل النصوص الدينية جاعلا الوقائع الاجتماعية هي المنطلق لبلوغ ما جاء في النص الديني ، ليؤكد أن كل الاجتهادات التي توصل إليها القدامى ما هي إلا انعكاسا للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الخاصة بهم ، وإن ما قدمه بن نبي يعتبر اجتهادا معاصرا يهدف إلى حل مشاكل الإنسان المسلم اليوم في عالم ترجع فيه الحضارة وشروطها لغير المسلمين محاولا في ذلك التوفيق بين مستجدات العصر وبين القيم والعادات الشخصية للمسلم ، مضيفا أبعادا جديدة للعقل البشري الذي ألف الاستهلاك الفكري فقط.

لقد قدم بن نبي من خلال تحديده لكيفية التعامل مع الفكرة الدينية التي ظلت محصورة نظريا وفي النصوص القابعة في السطور ، مستندا في ذلك إلى تجارب وخبرات الفقهاء والعلماء السابقين الذين كان لهم أثر بالغ على مسار الحركة الفكرية في العالم الإسلامي ، حلولا لمشكلة فكرية معاصرة هي مشكلة الموروث والجديد و الأصالة و المعاصرة ، حيث كانت رؤيته لتجارب أسلافنا هي أن ما قدموه من اجتهادات يعتبر إنجازا ثقافيا محددا بإطار تاريخي معين وأبعاده ليست مطلقة . " بل أن الفكرة الإسلامية بدأت تموت اجتماعيا عندما حدد معناها الغيبي وطبعت بمفهوم متناهي من خلال تجربة تاريخية خاصة هي تجربة الفقهاء في القديم[1] " . لذلك كانت حياة الفكرة الإسلامية متوقفة على الطريقة التي تبعث بها بحسب الظروف والأحوال الاجتماعية وتزداد فعاليتها بحسب قربها من تلك الوقائع. أما إذا

[1]– محمد يحياوي ، مشكلة المنهج في كتابات مالك بن نبي ، رسالة ماجستير ، قسم الفلسفة ، جامعة الجزائر ، 1991 ، ص 145 .

جعلنا الفكرة الإسلامية في عهدها القديم فريدة من نوعها ذات طابع قدسي فإننا بذلك نقتل العقل المسلم ونخرجه من نطاق دوره في التاريخ وهذا ما نوه إليه بعض المفكرين .ومعنى هذا أنه لا قصد بتجديد الفكرة الإسلامية تجديد الدين ، بل يقصد به التفاعل بين عقل المسلم بما عنده من معارف عقلية وبين أحكام الدين الأزلية. وبالتالي فان النظرة في ثقافة المسلم اليوم أمر لا بد منه بغية إصلاحها وإعادة بناء وتأسيس ثقافة إسلامية جديدة متفتحة على علوم العصر ، واعية بكل صعوباته ونقائصه فيتم التوفيق بين العلم التقني الذي يصنع الحضارة والعلم الديني الذي يصنع الإنسان والحضارة معا ، وتوكل هذه المهمة لعلماء المسلمين المتخصصين مع توفير المدارس المؤهلة ومراكز مخصصة لأن الجانب الديني مقدس عند المسلمين يتطلب الفطنة والعلم الغزير وأخلاقيات العالم دون الافراط في الجدل الذي يهين قداسة الدين ويفرق شمل المسلمين .

إذن فالشرط الأول لتحقيق المشروع الثقافي هو الصلة بين عالم الأشخاص ، وهو تأليف يحدث وفقا لمنهج تربوي يأخذ صورة فلسفية أخلاقية ، والسبيل إلى ذلك في رأي بن نبي بالنسبة للمجتمعات العربية الإسلامية ليس أكثر من الرجوع إلى ديننا الحنيف بالتوفيق بين مبادئه الإسلامية المقدسة وبين مقتضيات العصر الحديث ومقتضيات الإنسان المعاصر.

2- التوجيه الجمالي:

مثلما تحتاج الثقافة الفعالة إلى نزعة أخلاقية تغذيها وتوجها ، فهي تحتاج إلى ذوق جمالي وحس فني وقدرة على الابتكار والإبداع ، تتجلى في أنحاء شتى من حياة الأفراد و المجتمعات " فالبذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد ، يجد الإنسان نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل وتوخيا للكريم من العادات [1] " .هذا بالنسبة للفرد ، حيث نجد عنصر الذوق الجمالي واضحا في أفعاله وأخلاقه ، أما بالنسبة للجماعة يرى بن نبي أن للجمال

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، المرجع السابق ، ص 98 .

أهمية اجتماعية هامة ، واعتبره المنبع الذي تنبع منه الأفكار وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع

والذوق الجمالي يرتبط ارتباطا وثيقا بالمبدأ الأخلاقي من حيث أنه أيضا عنصرا من العناصر المكونة والمحركة للثقافة ، " ولأنه يحفز الهمم إلى ما هو أبعد من المصلحة [1] " . والذوق الجمالي إذا ارتبط بالمبدأ الأخلاقي فإنه يكون أبعد أثر في تهذيب النفوس وتربيتها . وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهمية الإحسان في العبادة والفكر والعمل ، وجعله مرتبة أعلى من الإسلام والأيمان . وقد عرف عنه صلى الله عليه وسلم استخدامه أسلوب التعريض عندما كان يريد انتقاد بعض القيم السلبية حرصا منه على عدم ذكر أسماء مرتكبيها فكان يقول : " ما بال قوم يقولون كذا " وعليه " فحين يكون المبدأ الأخلاقي ضروريا للعمل من حيث دوافعه وغاياته يكون العنصر الجمالي لازما لصورته وفعاليته"[2] وذلك فإن أي حركة تبتغي طريق الحضارة لا بد أن تعمل على ترقية ذوقها الجمالي كما عملت على تأسيس دستورها الأخلاقي ولشرح ذلك وضع بن نبي المعادلة التالية : مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = توجه حضاري.

لافتا النظر إلى أن الترتيب الذي ينظم هذين العنصرين هو الذي يحدد خصوصية حضارة عن أخرى تاريخيا ، وقد نتج عن هذا الترتيب ظهور نموذجين من المجتمعات تأسس النشاط الاجتماعي عند أحدهما على القيم والدوافع الجمالية ، وتأسس نشاط الآخر على القيم والدوافع الأخلاقية ، " وتمثل النموذج الأول الثقافة الغربية التي ورثت ذوقها الجمالي من التراث اليوناني والروماني ، وتمثل الثاني الثقافة الإسلامية التي ورثت من التراث السامي الشغف بالحقيقة [3] " .ولنأخذ على سبيل المثال مسألة ملابس المرأة في كلا المجتمعين ، فلما كان المجتمع الغربي قد انطلق من نقطة معينة في ذلك وهي إبراز جمال المرأة في

[1] – مالك بن نبي ، تأملات ، المرجع السابق ، ص 146 .

[2] – نفس المرجع ، ن ص

[3] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص 109 .

الشارع بكل ما يمكن أن يوضح مظهر الجمال ، كان المجتمع الإسلامي في المقابل قد اتخذ اتجاها مخالفا تماما ، إذ هو يهدف أساسا إلى إخفاء جمال المرأة في الشارع ، وليس يعني هذا أن الثقافة الإسلامية تفقد معنى الجمال في ملابس النساء المسلمات مثلا لكنها تضعه في المرتبة الثانية بعد الأخلاق ، لكن بالرغم من أنها تضع الأخلاق في المرتبة الأولى إلا أنها أولت عنأية كبيرة للبعد الجمالي في الشخصية الإسلامية ، فردا ومجتمعا وأمة ، كما يظهر ذلك بقوة من التأكيد على جانب طهارة النفس والجسم والمحيط حتى أن الإسلام اعتبر إماطة الأذى عن الطريق صدقة . فهو يطبع الفرد بنوعين من الجمال : الخارجي وهو الذي تحدثنا عنه ، والجمال الداخلي وهو ذلك الذي تطبعه فينا مكارم الأخلاق وحسنها . ف الأخلاق تنتج الجمال والعلاقة بينهما تكاملية تضمنية .

فالذوق الجمالي عنصر ثقافي يظهر في كل نشاط يقوم به الفرد ، والعكس " فلا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل ، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح ، والمجتمع الذي ينطوي على صورة قبيحة لا بد أن يظهر أثر الصورة في أفكاره وأعماله ومساعيه " [1]. ولتوضيح الفكرة أكثر نأخذ مثالا بسيطا عن طفل يلبس ملابس بالية قذرة صادفناه في الشارع فمثل هذا الطفل الذي يلبس كومة من القاذورات غير المتناسبة

يحمل في المجتمع صورة القبح والتعاسة ، بينما يمثل أحد السواعد من بين الملايين التي تحرك التاريخ ، لكنه لا يحرك شيئا لأن نفسه مدفونة في أوساخه . فهذا الطفل في الحقيقة لا يعبر عن فقر مجتمعه بقدر ما يعبر عن تفريط أفراد ذلك المجتمع في حياتهم . وإذا أخذنا صورة الطفل بأبسط معاني الجمال لقلنا أنه من الجانب الأخلاقي قد ستر بها عورته ، لكنها في نفس الوقت قتلت كرامته بين أقرانه ، فلا أحد ينكر أن في معظم المجتمعات نوعية الثوب وجودته هو الذي يحيك كرامة الشخص وإحترامه. فإذا أردنا أن نجعل من صورة ذلك الطفل لا يستدعي شراء ثوب جديد له ، بل حثه على غسل نفسه وثوبه كفيل بأن يضفي

[1] – نفس المرجع ، ص 97

عليه لمسة من الجمال بعد تخلصه من الأوساخ ، ما يخلصه أيضا من الاشمئزاز ليبقى فقط في صورته على منظر الفقر والكرامة ، بدل القبح والمهانة.

لكن الذوق الجمالي لا يقتصر تحقيقه على المساكين فقط ، بل لابد أن يشمل كل فئات المجتمع كل بمستواه ومهنته وهدفه في الحياة ودوره في المجتمع ، " فتأثيره عام يمس كل دقيقة من دقائق الحياة ، كذوقنا في الموسيقى ، والملابس ، أساليب الضحك ، ومسح أحذيتنا... " [1]. فالإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بالذوق الجمالي ، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة ، فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا ، وأن نتمثل في شوارعنا وفي بيوتنا مسحة من الجمال.

إن النفس البشرية إذا كانت صافية طاهرة نقية تقية ، فإننا نجد ما يدور بفكرها من أفكار موازية لها ، أما إذا كانت خبيثة فاسقة متنكرة لذاتها لا قدر الله فإنها تكون على قدر ذلك أي تأكل ذاتها بذاتها .

وفي هذا المجال يقدم لنا مالك بن نبي صورة حية من المجتمع السوفياتي الحديث : " ولقد صدرت أخيرا بعض الأوامر في موسكو . نقلتها إلينا الصحافة بتاريخ 1957/08/03 . تلزم سكانها بأن يراعوا نظافة مدينتهم ، فهم مهدودون بفرض غرامة تبدأ من خمسة وعشرين روبل ، على كل من يبزغ في الشارع أو يلقي باعقاب (السجائر) على الرصيف ، أو يعلق ملابسه في الشباك المطل على الشارع ، أو يلصق إعلانات على الحيطان ، وأيضا كل من يركب السيارات العمل بملابس العمل المتسخة " [2].

إلا أن ما نراه اليوم في شوارعنا وأحيائنا من قاذورات وأوساخ وفضلات ، وما نراه على حيطان مدارسنا وثانوياتنا ، وحتى جامعتنا من خربشات وتشويه لصورتها ، وجه من أوجه قبحنا لما فقدنا أدنى معنى للجمال .وما نراه على أجساد بناتنا وأبنائنا من ملابس فاتنة

[1] – نفس المرجع ، ص 100

[2] – نفس المرجع ، ص 94 .

تسطر عوراتهم وجه آخر من أوجه عدم فهمنا لمعنى الجمال وتشويه لصورته في ظل انتمائنا لحضارة الإسلام الراقية التي تضع الجمال مكان كل تستر واحتشام ، وإذا أردنا أن نربط هذا بالفكرة الدينية فسنقول أنها صورة لفقدانها فعاليتها . فهوس شبابنا بتقليد الحضارة الغربية دون استيعاب مبادئها الأصلية ودون فهم صحيح لعالم أفكارها جعلهم جيلا هجينا مشوها ، فلا هم بقوا على ملة أسلافهم ، ولا هم وصلوا لأفق الإنسان الغربي ، فجنوا على أنفسهم التي أصبحت لا تتنفس إلا فضلات الحضارة الغربية ، وعلى مجتمعاتهم التي أصبحت لا ترى أبناءها إلا في صورتهم التي تدير ظهرها لأي معنى للجمال الإسلامي.

فالجمال هو وجه الوطن في العالم ، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا .ولنفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بنفس الاحترام.

إن الجمال عنصر ضروري لكل حضارة ويبقى المشكل في كيفية توجيه هذا العنصر لأنه يعبر عن أيديولوجية هذا الشعب أو تلك الأمة .ومن ثمة وجب علينا إخضاع العنصر الجمالي للعنصر الأخلاقي دون إفراط ولا تفريط لأنهما متسايران معا وأي إخلال بهما يخل حتما بالأساس الحضاري لتلك الأمة . وعلينا في الأخير كما قلنا تحضير ذلك الإنسان الجديد صاحب المنطق العملي .

3-المنطق العملي :

لا تتم عملية توجيه الثقافة التي اقترحها بن نبي إلا بإدخال عنصر ثالث هو ما يسميه " المنطق العملي " والذي يعني " كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه ، بطريقة يتمكن الإنسان بها من استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة " [1].أي إنه المنطق البراغماتي المحكوم بالمبدأ الأخلاقي ، والذي يفرض أن يكون مصدر الفعالية ، التي هي أحد الشروط التي تهيئ المجتمع لمواجهة مشكلات التخلف ، وتعديل أسلوب الحياة بطريقة

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، المرجع السابق ، ص 102 .

تأخذ بعين الاعتبار الوسائل المتوفرة والزمن المحدد .والمنطق العملي يعلمنا كيفية ربط العمل بوسائله ومقاصده ، وذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئا دون مراعاة بعض المعايير من الوسط الاجتماعي.

وإذا نظرنا إلى واقع مجتمعنا اليوم وجدنا أنه فاقد للفاعلية في أبسط تجلياتها أي فقدان المنطق العملي في ثقافتنا يظهر في جوانب كثيرة من حياتنا العملية وحياة مؤسساتنا الاقتصادية والاجتماعية حيث وصل بنا المطاف إلى أغرب الحلول ، وخير مثال على ذلك استعانتنا باليد العاملة الصينية لاستلام مشاريع البناء في مدتها الزمنية المخطط لها ، وهو حل نصفه بالغريب في دولة تعاني منها الأغلبية الساحقة من شبابها من البطالة ، لا لأنها لا تملك مشاريع للتشغيل بل لأن المشروع السكني مثلا فيها يستغرق ثماني سنوات أو أكثر في حين أنه يمكن أن يتم في غضون سنتين ، بسبب لا فعالية المكلفين بالمشاريع ، فنجد العامل فيها يشتغل ساعتين في اليوم بدل ثماني ساعات ، فهو يبدأ العمل متأخر بساعتين من نهاية الدوام ، وفي سياق هذا المثال نشرت إحدى الجرائد اليومية صورة كاريكارتورية لورشة بناء تصور عشرة عمال ، تسعة منهم جالسون ولما سئلوا عن سبب جلوسهم أجاب الأول أنه مدير مشروع ، وأجاب الثاني :أنه مدير الأشغال ، وأجاب الثالث أنه كبير العمال...وهكذا حتى تبين أنهم كلهم مديرين ، ما عدا العامل العاشر الذي كان يحفر وهو الوحيد الذي كان يقوم بمهامه. وما يدل هذا إلا على فقداننا للمنطلق العملي حتى في كسب قوت عيشنا أي الفرد منا فاقد للمنطق العملي حتى بينه وبين نفسه ، فما بالنا بمصحلة مجتمعنا.

إن الأزمة هنا هي أزمة الثقافة في المجتمع العربي الإسلامي على الخصوص والعالم الثالث على العموم تركت النهج الصحيح والسليم الذي يحدثنا عنه مالك بن نبي " ولقد يقال إن المجتمع الإسلامي يعيش طبقا لمبادئ القرآن ، ومع ذلك فمن لأصوب أن نقول :إنه

يتكلم تبعا لمبادئ القرآن ، لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي " [1]. فأزمة ثقافتنا سببها انعدام المنطق العملي في حياتنا اليومية ، لذلك نجد القول غير الممارسة ، فالكلام في جهة والعمل في جهة أخرى ، في حين نجد الأمر معكوسا ، بالنسبة للمجتمعات التي تشهد نهضة ثقافية وحضارية شاملة ، وهذا ما عبر عنه مالك بن نبي " ونظرة إلى واقعنا لنرى الرجل الأوروبي ، والرجل المسلم : أيهما ذو نشاط وعزم وحركة دائبة؟ ليس هو الرجل المسلم بكل أسف ، هو الذي يأمره القرآن كما يعرف ذلك تماما يقول الله تعالى : " واقصد في مشيك " وقوله تعالى " ولا تمشي في الأرض مرحا " . إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة ، وهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا ، بل إنه أكثر من ذلك ينبغي أولئك الذين يفكرون تفكيرا مؤثرا ، ويقولون كلاما منطقيا من شأنه أن يتحول في الحال إلى نشاط وعمل " [2]

إن أثر المنطق العملي يتجلى حتى في تربية الأم لأطفالها ومعاملة الأب لأبناه ، فمن الطبيعي أن يتمرد الأبناء على الآباء كلما لاحظوا انعدام هذا المبدأ في معاملتهم لهم ، وسلوكهم معهم ولذلك فعنصر المنطق العملي ضروري للثقافة ، لكن بالنسبة للأصحاء يقول مالك بن نبي: " ومن هنا يأتي عقمنا الاجتماعي فنحن حالمون ، ينقصنا المنطق العملي ، ولننظر إلى الأم التي تريد أن تربي ولدها ، فهي إما أن تبلده بمعاملة أم متوحشة ، وإما أن ترخي له العنان وتتميع معه ، فإذا أبدت إشارة أو أصدرت أمرا ، شعر الطفل بتفاهة إرادتها ، فلم يعبأ بها ، إذ أن الوهن والسخف يطبعان منطق قولها حتى في عين هذا الصبي المسكين " [3].

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، المنطق العملي يبدو في عدد الحركات والنشاط الذي يقوم به الفرد داخل المجتمع ، وما يترتب عنه من نتائج ، هذه الأخيرة التي تجعل من

[1] – مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، المرجع السابق ، ص 87 .

[2] – مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، ص 87 ـ 88 .

[3] – نفس المرجع ، ص88 .

المجتمع مجتمعا مثقفا متحضرا ، داخل حلبة التاريخ ، أو مجتمعا سكونيا جامدا ، خارج حلبة التاريخ.

تبرز أهمية عنصر المنطق العملي بالنسبة للثقافة ، حيث أنها بدونه تصبح مبتورة ، وتفقد أحد أعضائها الأساسيين ، بل ربما العنصر الجوهري الذي تتوقف عليه حياتنا و ازدهارها ، أو إخفاقها وفشلها . فالمنطق العملي مقوم أساسي بالنسبة للثقافة ، ولا يمكن لثقافة ما أن تقوم على قدميها بدونه ، خرج مالك بن نبي بفكرة عن تقسيم العالم ، استمدها من تجاربه وملاحظاته الميدانية ، وهذه الفكرة تعبر عن نظرته إلى العالم من خلال الزائر السماوي الذي تخيله مالك بن نبي ، هذا الزائر المصاب بعدة عاهات ، ومع ذلك يلاحظ انقسام العالم إلى محورين ، محور " واشنطن . موسكو " ومحور " طنجا . جاكرتا " ، ونفس هذه الفكرة نجدها تتردد لديه حين يحلل في هذا المجال دور المنطق العملي في الثقافة يقول مالك بن نبي : " وعلى محور واشنطن . موسكو ، توجد ديناميكية خاصة تختلف عن الديناميكية التي قد يلاحظها زائر السماء من طنجة إلى جاكرتا...هذا الزائر يمكنه أن يلاحظ فرقا جوهريا هو:الثرثرة كلما قل النشاط والحركة إذ حيثما يسود الكلام تبطئ الحركة " [1]

فالمنطق العملي إذن هو العقل التطبيقي الذي يجسد الفعالية في النشاط سواء على صعيد الفكر أو العمل ، وهو مبدأ دعت إليه العقيدة الإسلامية التي طالما اعتبرت إتقان العمل والتفاني فيه وعدم تأجيله من الإيمان ، لذا اعتبر بن نبي أن أساس النهضة هو تمثل العقيدة الإسلامية ، من خلال ربطها بالمفاهيم المنطلقة من الأساس العقائدي وتحويلها إلى منطق عملي فإنه في هذه الحالة نكون قد سرنا في الاتجاه الصحيح .

فهو يرى أن من أسس شروط النهضة : الإنسان والتراب والوقت ، ولكن لا بد من ربطها بالعقيدة الإسلامية ، " لأن السبب في ذلك أن هذه العوامل الثلاثة تتطلب إلى جانبها عاملا آخر لا غنى عنه وهو العامل النفساني ، هذا العامل الذي يصطلح على تسميته بالعقيدة ،

[1] – مالك بن نبي ، فكرة الافريقية الآسيوية ، المرجع السابق ، ص146 .

فنحن إذن أمام قضية واضحة وضوحا كاملا ، فالشروط اللازمة لتكون النهضة بين أيدينا متوفرة ، فعندنا أكرم العناصر الموجودة في العالم ، وعندنا أخصب المساحات الترابية ، وعندنا الساعات الزمنية الكافية للإبداع و الابتكار " [1].فلو تساءلنا عن الشيء الذي ينقص هذه الأمور لتحقق النهضة فسنقول أنه العمل بموجب العقيدة الإسلامية ، فالإسلام وحده الذي يمكنه إعادة المسلمين إلى قيادة العالم ، شريطة أن يقتنعوا أن هذه العقيدة رسالة ضرورية ولا غنى عنها.

ولكي يتحول الإيمان والعقيدة إلى حيز الفعالية في الواقع المعاش ، فإنه لابد من أن تدخل ضمن التغيير الداخلي للإنسان المؤثرة على السلوك لأن " أول شيء في هذه الطريق هو تكوين الانعكاسات التي تغير سلوك الفرد ، وهذا التغيير النفسي هو الذي يسهل حياة المجتمع وهو أيضا الشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي ، فكل ما يغير النفس يغير المجتمع " [2]. فالذي ينظم سلوك الإنسان هو الشرائع المنبثقة عن العقائد ، والشريعة الإسلامية بميزة الوسطية توصل الإنسان إلى نهضة صحيحة ، لأن التكليف هو الذي ينظم العلاقة الداخلية ، بحيث " يكون عمل الغرائز واندماجها مطابقا لرسالة المسلم التغيرية في المجتمع " [3] .فبالرغم من امتلاك العالم الإسلامي للعقل المجرد ، إلا أنه بحاجة إلى عقل تطبيقي متكون من الإرادة و الانتباه ، وهذا غير موجود لحد الآن.

فالعالم الإسلامي يفقد الضابط الذي يربط بين العمل وهدفه ، وبين الثقافة ومثلها ، وبين الفكرة وتحقيقها ، وعندما أراد المجتمع أن يسير طبقا لمبادئ القرآن ، راح يسير في الاتجاه المعاكس ، لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه فليس الذي ينقصه منطق الفكرة ، بل منطق العمل ، فهو لا يفكر ليعمل ، بل يفكر ليقول كلاما مجردا لا يقدم بقدر ما يؤخر.وأفضل مثال على ذلك ما نسمعه في الحملات الانتخابية من قبل المترشحين الذين

[1] – مالك بن نبي ، المرجع السابق ، ص17 .

[2] – مالك بن نبي ، ميلاد المجتمع ، المرجع السابق ، ص 73 .

[3] – نفس المرجع ، ص 73.60

ينفقون الملايير لتنظيم حملاتهم ليتلوا أفكارهم وكلامهم ووعودهم لتموت بمجرد إطفاء (المايكروفون)ولو نجحوا في الانتخابات.

4- التوجيه الصناعي (الفني) :

إن العناصر التي سبق الحديث عنها ، أي المبدأ الأخلاقي ، والذوق الجمالي ، والمنطق العملي ، تكون عالم المفاهيم في الثقافة ولا تستطيع مجتمعة صناعة أي شيء مهما قل حجمه ، لذلك فلابد من عنصر رابع للثقافة ، والذي يتم بواسطته تكوين عالم الأشياء . لذلك نجد مالك بن نبي يستدرك في محاضراته حول الثقافة " على أننا حتى هذه النقطة من حديثنا لم نشر إلى إشارة عابرة إلى عالم الأشياء ، بينما نحن لا نتصور حياة الإنسان دون جانبها المادي ، كما لا نتصور شيئا لا يصدر عن فكرة معينة تتصل بطبيعتها بعالم المفاهيم ، وان هذا يفرض علينا أن نحدد عنصرا رابعا في الثقافة " [1].

والصناعة مصطلح قديم استخدمه ابن خلدون في مقدمته ، إلا أن بن نبي لم يقصد منه ذلك المعنى الضيق المقصود من اللفظ ، بل " كل الفنون والقدرات والمهن وتطبيق العلوم " [2] ، ليشمل كل الوسائل الفنية التي تكسب الفرد والمجتمع القدرة على تحقيق مهام اجتماعية ، ومستلزمات معيشية " في إطار فن صياغي يجسده العمل المستمد من العلم التخصصي الذي يشمل فن الراعي كما يشمل فن العالم على السواء " [3]. وما يقصده بن نبي بلغة واقعنا أن كل نشاط يقوم به الإنسان يوميا بحيث يمارسه كمهنة لابد أن يحظى بالأهمية والمتابعة من الجهات المعنية مهما كانت بساطة النشاط ، لأنه قبل كل شيء هو نشاط يساهم في تكامل مجتمعنا ، ولنأخذ على سبيل المثال : مهنة التنظيف بالرغم من أهميتها ودورها في تنقية وترقية الشوارع والأحياء إلا أنها مهنة محتقرة لا تحظى بأية رعاية من المسئولين ،

---

[1] – مالك بن نبي ، حديث في البناء الجديد ، المرجع السابق ، ص 75 .

[2] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، المرجع السابق ، ص104 .

[3] – مالك بن نبي ، آفاق جزائرية ، المرجع السابق ، ص 114 .

فبدلا من أن توجد هناك دورات تكوينية للعمال عن الوسائل التي يستخدمونها في عملهم من قفزات وأحذية خاصة وبدلات ، ومواد واقعية تحفظهم من الإصابات والجراثيم ، وحتى طريقة تصنيف النفايات ، نجد أن البعض حتى لا يعتبرها مهنة . وبدلا من أن يتلقى ممارس هذه المهنة أجرا يوازي أتعابه ومعاناته من أخطار عمله نجد أجره الأكثر زهدا بين كل الأجور ففي حين يتقاضى رامي تلك الفضلات والقاذورات في الشارع بشكل عشوائي أجرا يصل لأربعين ألف دينار ، يتقاضى عامل النظافة ما لا يزيد عن ثلاثة آلاف دينار .

وقد اقترح بن نبي في هذا السياق، إنشاء مجالس للتوجيه المهني ، والإعدادات التربوية المهنية لكل المهن في المجتمع بغض النظر عن مستواها ودورها . وإذا كانت الصناعة بهذا المعنى وسيلة لكسب العيش بالنسبة للفرد ، فإنها بالنسبة للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه و استمرار نموه ، فالصناعة من حيث كونها طرائق فنية لإنجاح مهام تتعلق بحياة المجتمع ، فهي تحقق له الاكتفاء الذاتي واستخدام طاقاته المتاحة ، بطريقة علمية منهجية ، تحقق الدرجة القصوى من الإتقان المهني والمهارات الفنية .

ويشير بن نبي إلى أن الرعي صناعة ، وعلى تواضع هذه المهنة وبساطتها ، " فإن لها في إحدى ضواحي باريس مدرسة لتأهيل الرعاة ، لذلك لو قارنا بين راع من خريجيها وراع من مجتمعنا حين يقود كل منهما قطيعه ، لتبين لنا الفرق " [1].

إذن من هنا تظهر أهمية الصناعة الفنية في تثقيف الأشخاص وقيامهم بوظائفهم ومهامهم ، على أكمل وجه وأحسن صورة ، والصناعة الفنية هامة بالنسبة للفرد والمجتمع ، وعنصر أساسي للثقافة ، فبها يحقق الفرد عيشه ويوفر الأشياء التي يحتاجها ، كما أنها تقوم بالنسبة للمجتمع بنفس الدور ، وتحفظ له إستمراريته في التاريخ " ومن المسلم به أن الصناعة للفرد

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، المرجع السابق ، ص 104 .

وسيلة لكسب عشيه وربما لبناء مجده،ولكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمراره "[1].

إن وضع بن نبي لمخطط مشروعه الثقافي في النصف الأول من القرن الماضي ، يبرر قلة توسعه في مفهوم الصناعة ليشمل التقنيات الحديثة . إلا أن حال مجتمعاتنا اليوم يدل على أننا مازلنا بحاجة لتحديد أولوياتنا في هذا المجال ، خاصة أن تيار العولمة المكتسح يشترط علينا التفكير والتخطيط والفعالية ، أي الشروط نفسها التي وضعها بن نبي للتحضر.

كان الإنسان في فكره وثقافته وسلوكه ، هو البؤرة التي تتركز فيها متطلبات الحضارة حسب نظرية مالك بن نبي ، الذي كان في جميع مؤلفاته باحثا عن سننها وقوانينها وعوامل ازدهارها وانحطاطها ، محاولا تشخيص العلل التي تعاني منها مجتمعاتنا ، واكتشاف وسائل معالجتنا ، ولقد توصل إلى أن الإنسان هو مكمن الداء ومصدر الشفاء في الوقت نفسه ، لذلك بحث أوضاعه الاجتماعية والثقافية والنفسية ، آخذا في عين الاعتبار ظروفه التاريخية والسياسية والاقتصادية . وخلص إلى أن الثقافة هي العامل المتحكم في كل ما دعاه ، وأنها الوسيلة التي يتم عن طريقها تغيير الإنسان العنصر الأول في معادلة الحضارة ، ومحور نظريته الثقافية.

[1] – مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، المرجع السابق ، ص 88 .

خلاصـــــة :

إن التوجيه هو قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف هو تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت وهذا الجهاز حيث يحرك مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود ، وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دفعة دينية

وذلك نجد أن الفعالية الثقافية كفيلة بإنهاض المجتمع وتوجيه الثقافة بإقامة الحضارة ، وحدد ابن نبي أربعة دعائم تقوم عليها الثقافة هي :الدستور الأخلاقي ف الأخلاق عنده تعتبر مرادفا لعمليات تكوين الروابط بين الأفراد في المجتمع فأي مجتمع مهما كانت مبادئه لا تقوم إلا على أساس أخلاقي فوظيفة المبدأ الأخلاقي هي بناء عالم الأشخاص ، ويعتبر أن التوجيه الأخلاقي هو تأثير العقيدة الدينية في مجال السلوك البشري ، فالتوجيه الأخلاقي يمثل عند بن نبي دستور المثل العليا والقيم الراقية المستمدة من جوهر الدين.

والذوق الجمالي عنصر ثقافي يظهر في كل نشاط يقوم به الفرد فنجده واضحا في أفعاله وأخلاقه ، أما بالنسبة للجماعة فيرى ابن نبي أن للجمال أهمية اجتماعية هامة ، والذوق الجمالي إذا ارتبط بالمبدأ الأخلاقي فإنه يكون أبعد أثر في تهذيب النفوس وتربيتها فإن الترتيب الذي ينظم العنصرين هو الذي يحدد خصوصية حضارة عن أخرى تاريخيا ، وبهذا يكون الجمال عنصر ضروري لكل حضارة فعلينا توجيه هذا العنصر للعنصر الأخلاقي وذلك لمسايرة النهوض الحضاري.

أما المنطق العملي فهو يعني كيفية ارتباط العمل بوسائله ومقاصده ، فهو يبدو في النشاط الذي يقوم به الفرد داخل المجتمع وهذه تجعل منه مجتمعا مثقفا متحضر ، داخل حلبة التاريخ ، فالثقافة بدون المنطق العملي تكون مبتورة ، فهو مقوم أساسي بالنسبة للثقافة وهو العنصر الجوهري في تصميمها في مجتمع يسعى إلى بناء الحضارة وازدهارها.

والتوجيه الصناعي هو العنصر الأخير وهو الذي يتم بواسطته تكوين عالم الأشياء ، لذلك نجد مالك بن نبي يبين أنه لا نتصور حياة الإنسان بدون جانبها المادي فالصناعة عنده " كل الفنون والقدرات والمهن وتطبيق العلوم " [1] ، فعلى هذا الأساس تكون الثقافة نظرية في السلوك أكثر كم كونها نظرية في المعرفة وهذا يعني أنها أيضا نظرية في المعرفة ، فعندما تؤدي الثقافة وظيفتها بالشكل المثالي لابد أن تؤدي في جانب من الجوانب لتحصيل المعرفة ومعرفة كيفية استخدامها بالشكل الصحيح. كما يشير ابن نبي إلى أن كلمة لا تحمل نشاطا معينا ، تكون كلمة فارغة ميتة. فكلمة ثقافة لا تكون سوى كلمة فارغة إذا لم تترجم على أرض الواقع وتعمل على تغيير الإنسان ، وإذا أردنا الربط بين عناصر الثقافة فسوف نلاحظ أن كل عنصر منها يولد الآخر بفضل فعاليته: فالأخلاق تولد الجمال والجمال يولد المنطق ، والمنطق يولد التقنية أو الصناعة.

فالتوجيه الثقافي هو عامل أساسي يساعد في عملية البناء الحضاري لأي مجتمع.

[1] – مالك بن نبي ، المرجع السابق ، ص104 .

الفصل الخامس

فعالية الثقافة في البناء الحضاري

الفصل الخامس

فعالية الثقافة في بناء الحضارة

تمهيـــــد

1. مفهوم الثقافة

2. تشكيل البنية الثقافية على مستوى الفرد

3. تشكيل البنية الثقافية على مستوى المجتمع

4. تشكيل البنية الثقافية على مستوى الثقافة

إستخلاصات

تمهيـــد :

سوف نعرض في هذا الفصل مفهوم الثقافة المعنى اللغوي وما يشتق من جذورها و تفريعاتها ثم نتابع تعريفات المفهوم عند مجموعة من علماء الغرب الذين اثّروا في المفهوم، و عند مالك بن نبي الذي أعطى بعدًا سلوكيًا و مخزونا من التربية تجتمع في مفهوم الثقافة.

طرح مالك بن نبي لعمليات إعادة البناء الاجتماعي كموجهات ، في ضوء التصورات البنائية العامة لديه. فهي ذات صلة بالواقع الحياتي للمجتمعات، موجهة مباشرة إلى الإنسان في مختلف أبعاده: الروحية، والنفسية، والسلوكية، والاجتماعية، والعقلية، و الأخلاقية، والجمالية، والفكرية، و المفاهيمية ،بغية خلق شروط الفعالية عنده لكي يكون جديرا بحمل رسالة التغيير في اتجاه المستقبل متخذا من التاريخ كموجه أساسي له، باعتباره مادة التغيير الأساسية ووسيلتها وهدفها في نفس الوقت.

ويمكن بيان هذه العوامل التي يراها بن نبي كفيلة بإحداث التطور الحضاري المطلوب إذا ما استطاعت التربية أن تتبناها في برنامجها الثقافي. يرى مالك بن نبي بأن مجتمع ما بعد الحضارة (ما بعد الموحدين) هو مجتمع متفسخ، استولت عليه الجراثيم والأمراض وتكاثرت مع الزمان، فهو لم يعد يقدر على ردعها لأن جهازه المناعي قد انهار. ولما كان الهدف عنده هو بناء حضارة، فإن الهدف كي يتحقق عند إعادة بناء الحضارة يتضح في أن القضية في هذه الحالة ليست تبديل بناء حضاري ببناء حضاري، ولا هي قضية سد فراغ حضاري تعيشه شعوب العالم الإسلامي، وإنما هي تحديد الداء الذي يشكوا منه هذا العالم من منظوره التاريخي ليس إلا.

فمالك بن نبي وبعد فحص منهجي دقيق لوضعية هذا المجتمع، وقف على هذه السلبيات في تعطيل حركة المجتمع، كما وقف على المواطن التي تتجلى فيها من حيث كونها معوقات للتغيير الاجتماعي المطلوب، يتوجب تصفيتها.

1- مفهوم الثقافة :

1-1 : مفهوم عام للثقافة :

تعود جذور كلمة(culture) إلى لفظين لاتينيين هما (cultura) التي تعني حرث الأرض وزراعتها، ولفظ (colere) الذي يحمل مجموعة من المعاني كالسكن والتهذيب والحماية والتقدير إلى درجة العبادة[1]. واستخدمت مجازا مع الحكيم اليوناني شيشرون (106-43 ق.م) كغاية للفلسفة تعمل على تثقيف الذهن وزراعة العقل وتنميته (culturaanimi)[2].

و تشتق الثقافة في قواميس اللغة العربية من لفظ ثَقِفَ التي تعني سرعة التعلم، فثَقِفْتُ الشيء إذا حَذَقْتُهُ وظفرت به، ورجل ثَقْفٌ حاذِقٌ فَهِمٌ فطِن[3]. كما يشير اللفظ أيضا إلى الآلة التي يقوم بها اعوجاج الرماح والسيوف، فتَثْقِيف الرماح تسويتها ، والثقافة بالمعنى العام " هي مجموعة الأفكار ، والقيم والعقائد التي تعمل في مجموعها على تكوين السمات العامة التي تميز إنسانا عن إنسان ، أو هي ما يتصف به الرجل الحاذق المتعلم من ذوق وحس نقدي وحكم صحيح "[4].

وإذا دل لفظ " الثقافة " على معنى الحضارة (civilisation كما في اللغة الألمانية كان له وجهان : "وجه ذاتي وهو ثقافة العقل ، ووجه موضوعي ، وهو مجموع العادات والأوضاع الاجتماعية والآثار الفكرية ، والأساليب الفنية والأدبية ، والطرق العلمية والتقنية وأنماط التفكير والإحساس والقيم الدائمة في مجتمع معين " [5].

---

[1] – ريموند وليامز ، الكلمات المفتاحية ، ترجمة نعيمان عثمان المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 2007، ص 94

[2] – معن زيادة ، معالم على طريق تحديث الفكر العربي ، سلسة عالم المعرفة ، العدد 115 ، 1975 م ، ص 29 .

[3] – ابن منظور ، لسان العرب ، ج 6 ، دار المعارف ، ص 492، 493

[4] – عبد الرحمن البزاز ، هذه قوميتنا ، ط2 ، دار العلم القاهرة ، 1976 ،ص 223 .

[5] – جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ط3 ، ج1 ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، 1982م ،ص 378 .

فاختلاف المجالات التي درس فيها مفهوم الثقافة وذلك بظهور مدرستين : "المدرسة الغربية التي ترى عموما أن الثقافة هي ثمرة الفكر ، أي ثمرة الإنسان ، تقابلها المدرسة الماركسية التي ترى بدورها أن الثقافة هي ثمرة المجتمع " [1]. فبالرغم من تعدد أوجه الاختلاف بين منظوريهما ، إلا أن ذلك لم يمنع من اتفاقهما في مسألة "تطورية الثقافة " التي لمح إليها أصحاب المدرسة الغربية أمثال (رالف لينتون) الذي يرى " أن الأفكار الجديدة والمكتشفات والمذاهب هي الإطار الذي يتم داخله كل تغيير يصيب الثقافة . وهو يوافق إلى حد كبير رأي أحد رواد المدرسة الماركسية ، (ماوتسي تونغ) بأن رب شيء جديد في مرحلة تاريخية معينة يصبح قديما في مرحلة تاريخية أخرى " [2].

غير أن ابن نبي يرى أنه لا يمكن لا في تحديد المفهوم ولا في اختلاف تركيبة المجتمعات ، بل الأمر برمته متعلق كليا بالهدف من وراء الدراسة . فإن كان الفكر الماركسي أو الفكر الغربي قد طرح سؤال :ما هي الثقافة ؟ بهدف فهم واقع اجتماعي معين موجود بالفعل في نطاق تاريخي معين ، فإن الهدف من طرح السؤال في العالم العربي والإسلامي يأخذ مجرى أخر ، إذ هو يتصل بمحاولة خلق واقع اجتماعي معين لم يوجد بعد إلا أنه بالرغم من ذلك لا يستبعد استعمال وجهات النظر الغربية في دراسة الثقافة العربية الإسلامية لكن ليس أكثر من إعتبارها توجيهات قيمية ،وعلى هذا الأساس كان المفهوم الذي وضعه بن نبي للثقافة محملا برؤى جديدة لم نألفها من قبل .

1-2 مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي :

حدد مالك بن نبي مفهومه للثقافة في أكثر من مؤلف، معتمدا في كل مرة على وجهة نظر تختلف في أساسها على سابقتها، ما جعل تعريفه للثقافة واردا بعدة صيغ .

[1] – مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، مرجع سابق ،ص 37 .

[2] – نفس المرجع ، ص 37 .

1-2-1:مفهومه للثقافة عامة :

نجده مدرجا لأول مرة في كتاب " شروط النهضة "، تحت عنوان رئيسي هو " الإنسان " الذي هو الطرف الأول من معادلته عن الحضارة، باعتبار الثقافة من الأشياء الإنسانية التي تستوجب التعريف إذا ما أردنا توجيهها في مسار النهضة في العالم الإسلامي، إلا أن تعريفها في هذه الحالة ينحصر بين نوعين من التحديد، " سلبي يفصلنا عن رواسب الماضي، وإيجابي يصلنا بمقتضيات المستقبل [1]"، والمقصود هنا ان التفكير في ثقافة مستقبلية تستجيب لمقتضيات عصرنا لا يعني أبدا التخلي عن ثقافتنا السابقة ولا يعني محوها، إنما فقط تصفية عادتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي و الاجتماعي مما فيها من عوامل هدامة وحشو لا فائدة منه حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة، وهي وجهة نظر توافق إلى حد كبير " ت. س. إليوت بأنه حين نتحدث عن رقي المجتمع أو رقي الأفراد فسيكون قولنا : سأجعل من نفسي شخصا آخر [2]". والأمر سيان بالنسبة للنوع الثاني من التحديد، الذي لا يعني به ابتكار منهج جديد للتفكير، أو خلق عقلية جديدة، بل هو ببساطة ناتج التحديد الأول بالإبقاء على العناصر الجوهرية التي تكون ضرورية للثقافة وتكييفها بما يقتضيه المستقبل. وكأنه اقتبس فكرته مما حصل للمجتمع الجاهلي عندما جاء الإسلام فخلصه من عاداته وتقاليده الوثنية التي كانت تطبع في شخصيته جانبا من الوحشية، ليبقى فيه الجانب الذي تطبعه سمات حميدة كالأصالة والشهامة والكرم وغيرها من الصفات التي تؤهله ليكون إنسانا متحضرا له ثقافته الخاصة والمستقلة. وهو رأي يتقارب إلى حد ما مع رأي "دانييل وارنر" في قوله: " نجد أن الثقافة في تلك الفترات التاريخية التي يصبح من الضروري تغيير تنظيم اجتماعي تعارض مستويات المجتمع التي استفادت من زمنها وهي مستويات بهذه المناسبة رفعتها وامتدحتها

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، مرجع سابق ، ص 86

[2] – ت .س. إليوت ، ملاحظات نحو تعريف الثقافة ، شكري محمد عياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، 2001 ، ص 28

بحق ثقافة الماضي، لكنها برهنت على قصورها وعدم دفعها لمزيد من التقدم نحو المستقبل "[1]

و على هذا الأساس جاء تعريف بن نبي للثقافة " بأنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"[2]. نجد التعريف لا يخلو من وجهتي النظر الماركسية والغربية في نفس الوقت، فهو يضم بين حديه نوعين من المعطيات، بحيث أنه عندما حدد الثقافة في الجزء الأول من التعريف بأنها مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي، كان ذلك يوافق معطيات (الإنسان) التي يقوم عليها المفهوم الغربي الذي يعتبر الثقافة ثمرة الإنسان .

وعندما حددها في الجزء الثاني بأنها المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته كان بذلك يساير معطيات (المجتمع) التي يقوم عليها المفهوم الماركسي الذي يرى أن الثقافة ثمرة المجتمع، مع الأخذ بعين الاعتبار انسجام كلا المعطيين في كيان واحد. كما أن تعريفه هذا يحدد لنا ضمنيا سمة أساسية للثقافة، هي التطورية اي الحركية الايجابية حين قال عنها بأنها رأس مال أولي يلقاه الفرد منذ ولادته، كأن رأس المال هذا يمنح للفرد منذ ولادته كي يكون كيانه النفسي الذي سيساير في نموه وتطوره .

أما تعريف الثقافة في مؤلفه "مجالس دمشق" كان بهدف إيضاح نقطة يراها ضرورية لتحديد الثقافة، وهي التفريق بين معنى كلمة "علم " والتحذير من الخلط الخطير بين المفهومين محاولا إظهار الفروقات والتمايزات بين مكونات كلا المفهومين،" باعتباره العلم مصدرا للمعرفة واللباقة والمهارة وفقا لنوعية البحث العلمي كما أنه يمنح فرصة امتلاك

[1] – رايموند ويليامز ، الثقافة والمجتمع ، الهيئة المصرية للكتاب ، 1968 ، ص 300 .

[2] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، مرجع سابق ، ص 89 .

القيم التقنية التي تولد الأشياء، بينما الثقافة تنتج السلوك والغنى الذاتي الذي يتواجد على كل مستويات المجتمع [1]". وأخذ في ذلك جواب السيد (إدوارد هوريو) الذي كان عميد كلية الآداب في" ليون" ورئيسا للبرلمان الفرنسي، عندما طرح عليه السؤال : ما هي الثقافة ؟ من طرف أحد الصحافيين بقوله:" الثقافة هي ما يبقى عالقا في الأذهان عندما ننسى ما تعلمناه على مقاعد الدراسة والجامعات[2]". فيرى بن نبي أنه بالرغم من عفوية هذا الجواب إلا أنه يضع دون قصد حدا فاصلا بين العلم و الثقافة مستعينا في ذلك بمثال طبيبين أحدهما أمريكي والآخر عربي مسلم، فبالرغم من كونهما ارتدا نفس الكلية وتحصلا على نفس الدرجة العلمية ونفس الرصيد المعلوماتي إلا أننا لو راقبنا سلوكهما لوجدناه مختلفا تماما، وذلك لا يرجع لرصيدهما العلمي لأنه أمر يجمعهما، بل الأمر كله يرجع لاختلاف التركيبة الثقافية التي نشأ كل واحد منهما في كنفها، لأن سلوك الإنسان مهما كان فهو يجسد لنا صورة عن الواقع الثقافي الذي أنتجه. في حين أننا لو أخذنا الطبيب الأمريكي مع راع أمريكي فسنلاحظ تطابقا في السلوك وفي المعتقدات والممارسات اليومية بالرغم من تفاوت الدرجات العلمية بينهما، وذلك راجع لكونهما ثمرة الثقافة نفسها. و على هذا الأساس تكون الثقافة نظرية في السلوك أكثر مما هي نظرية في المعرفة، لأن إحدى النقاط التي تمكنا من تمييز المجتمعات من بعضها أو بتعبير آخر تشخيص هويتها، هو الاختلاف الذي تنتجه الثقافة ولا ينتجه العلم. فالسلوك الاجتماعي للفرد خاضع لأشياء أعم من المعرفة وأوثق صلة بالشخصية منها بجمع المعلومات وهذه هي الثقافة في نظر بن نبي. وهنا يحضرنا مثال بسيط صادفنا في إحدى المسلسلات التلفزيونية لقناة أبو ضبي عن فتى مراهق يعيش وسط عائلة سعودية محافظة. خالف ذات يوم إحدى قواعد العرف السعودي حين دخل على الحريم دون (نحنحة) ما أدى إلى مغادرة الضيوف

[1] – مالك بن نبي ، من أجل التغيير ، دار الفكر ، دمشق ، 2002 ، ص 54 .

[2] – مالك بن نبي ، مجالس دمشق ، ط1 ، دار الفكر ، دمشق ، 2005م ، ص 92 .

غاضبين من سلوك الفتى وتربيته. فاستغرب الأمر كثيرا لما هم والده بعتابه فرد قائلا " لكن المدرسين لم يعلمونا هذا في المدرسة ".فرد الوالد قائلا:"لا عليك يا ولدي فهذا خطئي وليس خطأك". فغضب الضيوف من سلوك الولد يدل على رفض المجتمع لذلك السلوك، والولد بتصرفه قد نفى تمسكه بالجانب الأخلاق ي لمجتمعه، واعتراف الوالد بخطئه دليل على وجود قطيعة بين الفرد والمجتمع أدت إلى حدوث خلل في التفاعل الذي من المفروض أن يكون إيجابيا بينهما. وتكرار خطأ كهذا بشكل دائم سيؤدي حتما إلى إتلاف وتمزق نسيج العلاقات الاجتماعية المتبادلة والتي تتكون بموجبها الثقافة وتستمر.

1-2-2 : مفهوم الثقافة في التاريخ:

لم يتوقف مالك بن نبي عند وضع مفهومه العام للثقافة بل راح يستقرئ التاريخ لعله يعثر فيه على مدلول للثقافة تتوفر فيه شرطان هما : الفهم وإمكانية التطبيق، ويقول في ذلك: " إنه لمن أولويات واجبنا أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي، وذلك يجب أن نحددها كعامل تاريخي لكي نفهمها كنظام تربوي تطبيقي لنشرها بين طبقات المجتمع[1]". وقد حدد انطلاقا من هذا المبدأ معنى الثقافة في التاريخ معتبرا إياها " تلك الكتلة نفسها بما تتضمنه من عادات متجانسة وعبقريات متقاربة، وتقاليد متكاملة وأذواق متناسبة وعواطف متشابهة وبعبارة جامعة: هي كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة ويحدد

قطبيها "[2]. فلا يمكن لنا أن نتصور تاريخا بلا ثقافة، لأن الشعب الذي فقد ثقافته قد فقد حتما تاريخه.

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، مرجع سابق ،ص 85 .

[2] – مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، مرجع سابق ، ص 77

فالثقافة في عمومها، هي المحيط الذي يحيط ب الإنسان وهي الوسط الذي تولد داخله وتتشكل بموجبه ظروفه خصائص المجتمع المتحضر تبعا للغاية التي رسمها المجتمع لنفسه ويشترك في ذلك كل فرد من أفراده دون استثناء، بغض النظر عن فئاتهم ومستويات تكوينهم واهتماماتهم. والأمر الملاحظ في المفهوم الذي قدمه لنا مفكرنا أنه يختلف عما هو متعارف عليه بين المؤرخين الذين يرون في الثقافة جملة من التطورات الأدبية والفنية، وبناء المدارس والمعاهد خلال فترة زمنية معينة وفي رقعة جغرافية محددة، نجد مفهوم الثقافة عند الدكتور رضوان السيد حيث ربط التطور الثقافي لأي مجتمع بتطوره التاريخي فيقول أن " الثقافة هي التعبير عن كلية حركة المجتمع، إنها صورة حركة المجتمع البشري ماضيا وحاضرا وفي المستقبل، غير أن الثقافة بهذا المعنى المجرد ليس إلا صورة تطور المجتمع عينه، أقصد أن كل مجتمع يمتلك صورة لتطوره الثقافي ـالتاريخي [1]". فلا مجال لفصل الثقافة عن التاريخ لأنه في الحقيقة ترسيخ للمسار الذي تتخذه ثقافة ما في مجتمع معين .

1-2-3 : مفهوم الثقافة في التربية :

بعد هذا ينتقل بن نبي إلى تحديد آخر للثقافة في أبرز المجالات الحيوية في المجتمع وهي التربية، محاولا تبيين مدلولها وتحديد وسائلها وغاياتها، فيقول : "إذا حاولنا أن نحدد الثقافة بمعناها التربوي، فيجب أن نوضح هدفها وما تتطلبه من وسائل التطبيق، فأما الهدف فيتمثل في أن الثقافة ليست علما خاصا لطبقة من الشعب دون الأخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي، وخاصة إذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقي والتمدن، فإنها أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعضهم الآخر من السقوط من أعلى الجسر إلى الهاوية [2]"

[1] – رضوان السيد ، المسألة الثقافية في العالم العربي الإسلامي ، ط2، دار الفكر، دمشق، 2001، ص 30.

[2] – مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، مرجع سابق ،ص 77.

وانطلاقا من هذا القول فإن الثقافة تشمل على إطار حياة واحدة، يجمع بين راعي الغنم و العالم جمعا توحد فيه بينهما مقتضيات مشتركة وهي تهتم في معناها بكل طبقة من الطبقات المجتمع فيما يناسبها من وظيفة تقوم بها، وما لهذه الوظيفة من شروط خاصة، وعلى ذلك فإن الثقافة تلعب دورا في شؤون الفرد، وبناء المجتمع.

ولكي يوضح لنا أكثر محورية الوظيفة التي تقوم بها الثقافة في حياة الفرد و المجتمع مثل لها بوظيفة الدم،كونه يتركب من الكريات الدموية الحمراء والبيضاء، وكلاهما يسبح في السائل واحد من البلازما ليغذي الجسد. " فالثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع يغذي حضارته و يحمل أفكار العامة، وكل هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة و الأذواق المتناسبة " ونفهم من خلال هذه الأفكار أن تطبيق الثقافة هو أن تتحول إلى أسلوب حياة في المجتمع بحيث تؤثر على كافة طبقات الاجتماعية دون تميز أو تفرقة، لان جميع الافراد بنسب للمجتمع سواسية يؤثرون فيه و يتأثرون به، والأمر هنا لا يتعلق بكيفية تشكل الثقافة في مجتمع من المجتمعات، ولا يتعلق أيضا بالتأمل في الثقافة لتحديد دورها ووظيفتها ، بل السؤال الذي تدور فيه فلكه اهتمامات بن نبي هو عن كيفية إعداد ثقافة معينة ؟ أو كيف السبيل إلى جعل تعريف الثقافة يتحرر من قيود التنظير لينتقل إلى مرحلة التطبيق بجعله منهجا أو برنامج تربويا يمكن تبليغه لجميع الأفراد، لتحقيق هدف أسمى يتمثل في إعادة ثقافتنا إلى مسارها التاريخي لتثبت وجودها باعتبارها حياة المجتمع الذي بدونها يصبح مجتمعا ميتا، ولا شك أنه لا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق التربية .

وفي مفهوم التربية في هذا السياق يورد إليوت في كتابه ملاحظات نحو تعريف الثقافة، تعريف بعض المفكرين " التربية على أنها العملية التي يسعى بها المجتمع إلى أن يفتح حياته لجميع أفراده ليمكنهم من المساهمة فيه[1] " ، كما يراها البعض أيضا " بأنها التشكيل

[1] – ت ،س ، إليوت ، ملاحظات نحو تعريف الثقافة ،مرجع سابق ، ص 139 .

الخاص بالسلوك المكتسب، ونتائج السلوك التي يشترك جميع أفراد مجتمع معين في عناصره المكونة ويتناقلونها [1]". لكن هل نفهم من هذا أن غرض التربية هو نقل الثقافة ؟ وهل الثقافة هي ما يمكن نقله بالتربية ؟ وهل نقصد بالتربية هنا تلك التي نتلقاها في المدرسة ؟

إن محاولة الإجابة على الأسئلة التي طرحناها، يقوم على تحديد المقصود من التربية من خلال منظور مالك بن نبي، لكن قبل لا بأس أن نحدد أولا بعض المعطيات التي ستساعدنا لبلوغ غايتنا، والتي تتمثل في في بعض خصائص الثقافة التي استقرأناها من خلال اطلاعنا على الفكر البنابي، وهي كون الثقافة :

ـ متغيرة : ومن المسلم به أن التغيير ليس سنة ثابتة ولكنه مطلب حضاري واجتماعي، كما أنه مطلب شرعي دعانا إليه القرآن الكريم والسنة النبوية. إذ يقول تعالى :{ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ }(الرعد .11)، وهنا يرد التغيير في الآية الكريمة على أساس أنه فعل إيجابي، بل أساسي لأي تغيير نحو الأمام وللأفضل ، كما يؤكد على أنه سنة كونية لأجل مصلحة المجتمع والحفاظ على استمرار الحياة فيه. فيكون في ذلك التغيير حفاظ على هوية المجتمع وشخصيته كما أنه يضمن مسايرة العصر وتطوراته. ويتجسد التغيير في الثقافة بتغير بعض أنماطها خلال فترة زمنية معينة بالزيادة أو النقصان أو بإحلال بدائل جديدة تتناغم مع تغيرات العصر على غرار الأفراد الذين يحملون تلك الثقافة المتواصلة (ولا نقصد من التوصل أن كل الأنماط الثقافية في المجتمع تبقى خالدة إلى الأبد. لأنها أنماط قابلة للزوال بحسب مقتضيات الفترة التاريخية التي تعايشها وبزوال الأفراد أو المجتمع الذي كان يحملها) وبالتالي فإن أي تغيير اجتماعي هو بالضرورة تغيير ثقافي .

[1] – أحمد بن نعيمان ، هذه هي الثقافة ، ط 1، شركة دار الأمة ، الجزائر ، ص 21 .

ـ متنوعة المضمون : ويقصد به ذاك التنوع الذي يميز مجتمعا على آخر، وهو بصيغة أخرى مثلا هو ذلك التنوع في المضمون الذي يرسم حدود التميز بين ثقافة المجتمعات الأوروبية وثقافة المجتمعات الإسلامية، ولتوضيح ذلك نذكر على سبيل المثال إحدى الأعراف العائلية الخاصة بنظام الأسرة والشمل الذي نجده في المجتمع الإسلامي يتمثل في صلة الرحم ووجوب التضامن والتكافل بين أفراد الأسرة الواحدة إذ يتوجب على الابن الاعتناء بالوالدين والاهتمام بهما ورعايتهما إن عجزا حتى مماتها، وهي إحدى قيم الدين الإسلامي وإحدى صور تجسد المبدأ الأخلاق ي في المجتمع، في حين نجد عرف الأسرة الأوروبية مبدأ مقلوبا ، إذ يتوجب على الابن أو البنت أن تترك البيت الأسري وتأسس بيتا مستقلا بعد بلوغ سن الرشد وهو أمر يؤدي إلى قطع الصبة بالأسرة نهائيا. لذا فتنوع الثقافة من حيث المضمون مرتبط بالأثر الاجتماعي وبشبكة الصلات الاجتماعية، وبتوجيه الفرد توجيها صحيحا يميزه عن غيره من ثقافات الأمم بطبعه الخاص به .

ـ اكتسابها لا شعوريا : وهي فكرة يوضحها لنا بن نبي من خلال مثال أورده عن ردة فعل متفرج مسلم وآخر أوروبي إزاء مشهد في مسرحية ما يصور انتحار البطل حزنا على موت حبيبته. وبحكم اختلاف البيئة الثقافية التي أنتجت نمط سلوك كل واحد منهما، نرى أن ردة فعل الأوروبي كانت البكاء لكونه يفكر في جو من الحساسية الجمالية، بينما ردة فعل المسلم كانت باستنكار المشهد كون سلوك البطل وتصرفه حرام في الشريعة الإسلامية، ما طبع تفكيره بنمط من الحساسية الأخلاق ية " وفي كلتا الحالتين يتكلم اللاشعور بلغته الخاصة [1].

[1]– مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، مرجع سابق ، ص 53 .

من هذا" يرى ابن نبي أن الإنسان في لحظة ميلاده لا يكون سوى فرد يتمتع بطاقة حيوية بيولوجية ن لكن ما إن يبدأ باستعمال إدراكه يكيف بفضل التوجيه الثقافي ليتحول إلى شخص يستخدم طاقته بحيوية بشكل إيجابي ليشارك مجتمعه في فعل التحضر[1]" .

إذا افترضنا أنه يمكننا اعتماد برنامج تربوي مدرسي ينقل الثقافة الخاصة بالعالم الإسلامي عمومها إلى كل طفل في أي بلد إسلامي، فهل سنتمكن من تضمينه الأنماط والأعراف الثقافية الخاصة بكل مجتمع من المجتمعات الإسلامية لوحدها مع مراعاة اختلافها وتباينها في العديد من النقاط ؟ وان كانت المدرسة هي المحيط الذي يتلقى فيه الفرد ثقافته، فهل يعني هذا أن الطفل دون السن القانونية للدراسة فرد لا ثقافة له ؟ وهل يعني ذلك أن كل فرد لم يحظ بفرصة دخول المدرسة لا يمكن اعتباره شخصا (بمفهوم بن نبي) ؟

ولا يمكن أن خرج من هذا الكم من التساؤلات إلا باستنتاجين أساسيين هما :أن التربية التي يقصدها ابن نبي هي " التربية الاجتماعية " التي لا يقتصر هدفها على تعليم الناس أن يقرؤوا أو يكتبوا (التربية المدرسية والتعليم)، بل الهدف منها أكبر وأشمل بكثير يتمثل في تعليم كل فرد كيف يعيش حياته مع غيره، وكيف يتأقلم في مجتمعه ويتفاعل معه، أي تعلمه كيف يكون إنسانا متحضرا، وكيف يمكنه أن يحفظ لثقافته وحضارته استمراريتهما بمسايرة روح العصر دون أن يفقد مميزات شخصيته وملامح هويته وهوية مجتمعه. ..الخ. لذا فهي تتجاوز حدود حجرة الدرس والمدرسة إلى مجال أوسع. وفي هذا يرى بن نبي " أنه إذا ما تصورنا التربية في نطاق المصطلحات أمكننا أن نلخصها بكلمة واحدة هي : الثقافة[2] " . فالثقافة ليست ظاهرة صادرة عن المدرسة بل عن البيئة. لكن المدرسة غن كانت تتضمن مقررتها الدراسية مواد تجسد ولو جزئيا بعض جوانب

[1] – مالك بن نبي ، ميلاد المجتمع ،مرجع سابق ، ص 100 .

[2] – نفس المرجع ، ص 62 .

العلمية الثقافية إلا أن السلوك السيئ لبعض تلاميذ المدارس كالاعتداء على الأساتذة والمعلمين (وهي ظاهرة انتشرت مؤخرا بشكل ملحوظ في مدارسنا) وانتشار الآفات الاجتماعية وتعاطي المخدرات والمتاجرة بها داخل حرم المدرسة ، والتقليل من احترام الآخرين من زملاء ومسئولين ، واتساع دائرة التسرب المدرسي والهروب من أي واجب تكويني ، وغيرها من الظواهر .

غير أن وضعنا الحالي لا يجسد فقط فشلنا في تكييف أفرادنا وتفعيلهم في نطاق المدرسة ، بل حتى ذلك هو تجل حي عن فشلنا ثقافيا في خلق الوعي التربوي الذي أصبح يظهر بوضوح في لجوئنا إلى استيراد هياكل العمليات التربوي من أوروبا ومن أمريكا ما يجعل التلميذ أو الطفل يصطدم في المدرسة بقيم مستوردة لا تتناسب مع محيطه وواقعه الفكري الذي يعيشه في بيته ومجتمعه.

ثم إن خطورة انعدام الوعي التربوي والثقافي وتطوره لدرجة أصبح فيها الفرد ينفر من ثقافته ويعيب على نفسه كونه عربيا مسلما . إذ أن بعض الأولياء الذين من المفروض أن يكونوا فعالين في نقل ثقافتهم لأبنائهم ومساهمين في بناء حضارتهم لا هدمها ، يدفعون مبالغ مالية تفوق أحيانا إمكانيات دخلهم مقابل محو أية صلة تربط أبنائهم باللغة العربية أو بالمجتمع الإسلامي بإدخالهم لدور حضانة منذ سنتهم الأولى بهدف تعلم الفرنسية لتصبح لغتهم الأم والاعتياد على نمط حياتي فرنسي ، طوال الست سنوات الأولى من حياتهم ، ليوجهوا بعدها إلى مدارس خاصة تطبق برامج تعليمية أجنبية محضة . وأسخف ما في الأمر أنهم في حال اضطروا لتسجيلهم في مدارس حكومية تراهم يبحثون عن أساتذة لغة عربية ليقدموا دروسا خصوصية لهم بما أن البرنامج المدرسي الحكومي يلقن بالغة العربية في أطواره الثلاثة . وكأن مشكلة التخلف التي يعاني منها المجتمع الجزائري مشكلة لغة ومشكلة برنامج تعليمي . وهم لا يدركون أنه أولا بقراراتهم ذاك خلقوا أفرادا معزولين عن مجتمعهم بسبب افتقادهم لأبسط رابطة تمكنهم من التواصل مع مجتمعهم

وهي اللغة ، لأنهم أفراد لا يتكلمون إلا اللغة الفرنسية . ولا هم يحسون بانتمائهم الاجتماعي والحضاري والثقافي ، هذا بغض النظر عن عقدة " تضخم الأنا " التي يصابون بها إذ يعتبرون أنفسهم أرفع مستوى من أقرانهم من أفراد المجتمع العاديين .

ما يجعلهم في الحقيقة عينات ضائعة بين انتمائهم البيولوجي للمجتمع العربي الإسلامي ، وتوهمهم بانتمائهم للثقافة الفرنسية التي في الحقيقة لم يأخذوا منها أفكار قاتلة أدت إلى طمس شخصياتهم وهوياتهم فانتقمت منهم شر انتقام ، فكما نفروا في الأول من مجتمعهم وثقافتهم أصبح مجتمعهم هو الذي ينفر منهم بعد أن أصبحت سلوكاتهم وتصرفاتهم تنافي الدستور الأخلاق ي للمجتمع والثقافة الإسلامية .

2- تشكيل البنية الثقافية على مستوى الفرد :

2-1: الأخلاق :

يعبر مالك بن نبي عن الفرد ذو الثقافة والمتفاعل في مجتمعه (شخص)، " فكلمة شخص تعني تغيير في المجال الثقافي الذي يدين له الفرد ليصبح شخصا "[1]ولكي تتم عملية تغيير مجتمع أو فرد إلى شخص، هناك شرطان لابد من تحققهما:

أولاً: أن يقتنع الإنسان بالفكرة الموجِّهة لمناهجه في الحياة.

ثانياً: أن يُقنع الآخرين بهذه الفكرة.

فباقتناع الفرد بالفكرة التي تؤلف الطاقات وتفعيلها نحو بناء الحضارة، وقيامة بدور المستقطِب لها والداعي إليها، يتجه المجتمع نحو التغيير الشامل ولكن بصورة بطيئة، وإنما أكثر ضماناً للتغيير المطلوب. إن إدراك كون مشكلتنا أنها نابعة من العقل والفكر،

[1] – مالك بن نبي ، تأملات ،مرجع سابق ، ص 169

يضع يدنا على مفتاح التغيير والعلاج لمشكلاتنا بمختلف أنواعها، يقول مالك بن نبي: " إن مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائب بل فيما يسودنا من عادات وما يراودنا من أفكار، وفي تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من قيم الجمال و الأخلاق وما فيها أيضاً من نقائص تعتري كل شعب نائم... إن جوهر المسألة هو مشكلتنا العقلية." [1]أن نعي أن مشكلتنا ليس في الإسلام الذي يجب أن نحمله بأصالته– لكنها في المسلم، "فمما لا جدال فيه أن الإسلام قد احتفظ بإمضائه الذي صيغت به الحضارة الإسلامية كدرة فريدة في التاريخ، ولكن المسلم هو الذي فقد استخدامه الاجتماعي".[2]

لقد استعصى الإسلام على الطاعنين فيه، ومنهم كثير من المستشرقين، وأثبت صحته في كل زمان، فلم تعد المشكلة في إثبات صحة الإسلام:" إن المشكلة ليست في الدفاع عن الإسلام الذي يجد في جوهره حصانة من عطاء الله إليه، ولكن في تعليم المسلمين كيفية الدفاع عن أنفسهم بما في الإسلام من وسائل الدفاع" [3]

وما دمنا نعاني من الازدواجية في السلوك النابعة من الانفصال بين الجانب الاجتماعي والجانب النفسي فلابد لمعالجتها " أن تكون لدينا فكرة عليا تصل ما بين الروحي والاجتماعي وتجري من جديد تركيب الشخص المسلم بحيث يتماثل مع ذاته، في المسجد وفي الشارع"[4].إن إدراكنا ووعينا لأهمية وجود مثل هذه الفكرة العليا هو جزء مهم من علاج مشكلاتنا.

أن نعي أن الحضارة تسبق، وتلد منتجاتها، " فمن المعلوم أنه حينما يبتدئ السير إلى الحضارة، لا يكون الزاد بطبيعة الحال من العلماء والعلوم، ولا من الإنتاج الصناعي أو

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ،مرجع سابق ، ص 40

[2] – مالك بن نبي ، فكرة الآسيوية الإفريقية ،مرجع سابق ، ص 226

[3] – مالك بن نبي ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، ص72

[4] – مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، مرجع سابق ، ص 100

الفنون، تلك الأمارات التي تشير إلى درجة ما من الرقي، بل إن الزاد هو (المبدأ) الذين يكون أساساً لهذه المنتجات جميعاً[1]".

إن مشكلة مجتمعاتنا الإسلامية والتي تعد سببا من أسباب الفوضى في مختلف المجالات تكمن في كون الفرد المسلم أصبح عاجزا عن الجمع بين العمل والتفكير في الوقت ذاته، أو أن يربط بين جهده الفكري وجهده العملي، وهذا العجز أو النقص" كما يتجلى في الإطار العامل النشاط الاجتماعي، يتجلى أيضا في الإطار الخاص أي في النشاط الفردي، فالفكرة الإصلاحية، مثلا، تستهدف إصلاح الفرد، ولكننا لا نشم مطلقا رائحة مصلح تتطلب معه الأمور أن يوجد ناطق بفكرة الإصلاح، أي حيث موضوع الإصلاح نفسه في المقاهي، وفي الأسواق، وفي كل مكان تتكشف فيه العيوب الاجتماعية التي يدعو إلى إصلاحها"[2]. وهذا العجز عن الجمع بين التفكير والعمل، الناتج عن الخلط بين جواهر الظواهر وأشكالها، "والذي طبع الحركة الفكرية نشأ عن سبب عضوي(وهذا العجز العضوي)تذكيه دائما ضروب من الشلل، أصابت النواحي الخلقية والاجتماعية والعقلية جميعا، وأخطر هذه النواحي هو الشلل الأخلاق ي، إذ هو يستلزم أحيانا النوعين الآخرين، ومصدر هذا البلاء معروف، فمن المسلم به الذي لا يتنازع فيه اثنان أن الإسلام دين كامل، بيد أن القضية قد أدت في ضمير ما بعد الموحدين إلى قضية أخرى هي: (نحن مسلمون) .. (إذن نحن كاملون)"[3]، والشلل الخلقي يعد السبب الرئيسي في تأخر المجتمع وتخلفه"يعجز المجتمع فيجعله غير قادر على زيادة جهده الضروري بنهوضه، وما الشلل الفكري إلا نتيجة من نتائجه: فالكف عن التكامل الخلقي ينتج حتما كفا عن تعديل شرائط الحياة، وعن التفكير في هذا التعديل"[4] ، فالشلل

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ، مرجع سابق ، ص 55

[2] – مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص83

[3] – نفس المرجع ، ص 85

[4] – نفس المرجع ،ص 86

الأخلاق ي الذي تعاني منه الأمة الإسلامية أصابها عندما تخلت عن مبادئها ومناهجها الذاتية في الترقية والتوجيه، وشدت الرحال للطرف الآخر لتستورد منه المناهج والمبادئ والقيم التي تفتقر لذلك الأساس الرباني الذي كان طوال الفترات السابقة لهذه الأمة السر الخفي الكامن وراء انتصاراتها، والذي تخلت عنه عندما ساد الجمود أركانها ولجأت إلى التقليد و"التقليد الخلقي يقتضي–لا محالة– التخلي عن الجهد الفكري أي عن (الاجتهاد) الذي كان الوجهة الأساسية للفكر الإسلامي في عصره الذهبي"، وبالتخلي عن الاجتهاد:"يتجمد الفكر ويتحجر في عالم لم يعد يفكر في شيء لأن تفكيره لم يعد يحتوي صورة الهم الاجتماعي"[1]. إذن، لكي تؤدي تلك العوالم الثلاثة دورها في إقامة شبكة العلاقات الاجتماعية لا بد لها من ضابط يوجهها وهو: الضابط الأخلاق ي، فكما أن هذه العلاقات تقوم على أساس عالم الأشخاص و الأفكار(الثقافة)، والأشياء فإنها أيضا تحتاج إلى مكون آخر هو المكون الأخلاق ي، " لهذا يؤكد مالك بن نبي على أمرين:

1. أن مجتمعا معينا لا يمكن أن يؤدي نشاطه المشترك دون أن توجد فيه شبكة العلاقات التي تؤلف عناصره المختلفة، النفسية و الزمنية.

2 . وإن كل علاقة في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقي، والدستور الجمالي الخاص، بالمجتمع".[2]

وإذا نظرنا إلى الوضع الاجتماعي الذي تعيشه الأمة الإسلامية،سواء من حيث علاقته بالثقافة أو بالسياسة أو بالاقتصاد، لا يمكن أن نقول إلا : لابد من دراسة هذا الواقع المتعفن الذي يعكس أفكارنا وقيمنا الخاطئة والمزيفة، واستبداله بواقع آخر نظيف، وهذا الاستبدال أو التغيير عنصره الأساسي: الفرد:"أي أن التغيير النفسي هو الذي يستهل حياة

[1] – نفس المرجع ،ص 87

[2] – مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، مرجع سابق ، ص 45

المجتمع، وهو أيضا الشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي"[1]، وهو أيضا: "الشرط الأساسي لتغيير أوضاعنا المتخلفة، فلقد أثبت التاريخ صحة هذا القانون: (غير نفسك تغير التاريخ) أو بالتعبير القرآني الرائع: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"(سورة الرعد:آية:11). "لا يغير ما بهم من انحطاط وتخلف حتى يغيروا ما بأنفسهم من أفكار خاطئة، ولكن في أي اتجاه؟، في اتجاه تحويل الواقع من واقع متخلف إلى واقع متحضر، عن طريق تحويل الإنسان ، من إنسان متخلف إلى إنسان متحضر"[2] يتفاعل مع الفكرة الدينية، ومن المعلوم أن أعظم التغيرات وأعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار الفكرة الدينية. لذلك وجبت الإشارة إلى أهمية الفكرة الدينية ودورها في التغيير الذي تحدثه في الفرد، وبالتالي في المجتمع، لنصل بعد هذه الإشارة إلى ضرورة الانطلاق–لتحقيق أيعمل،ثقافيا كان أم سياسيا أم اقتصاديا...– من الفكرة الدينية.

2-2 التكيف :

الفرد كوحدة أساسية في شبكة العلاقات الاجتماعية ، لا يمارس فعاليته دون تنشئته طبقا للأهداف الخاصة بالمجتمع ، وعلى النحو الذي يحول بدائيته الى حالة التفاعل مع قيم الجماعة . و هذا التشكيل الذي يتربى عليه الفرد منذ طفولته هو التكييف ، فالتكييف اذا في تعريف مالك بن نبي "هو عملية إدماج الفرد في شبكة اجتماعية ، عملية تنحية ، وهو في الوقت ذاته عملية انتفاء ، وتتم هذه العملية المزدوجة في الظروف العادية ، اي في حالة المجتمع المنظم بواسطة –المدرسة– وذلك ما يسمى بالتربية ، اما إذا كان المجتمع في طريق التكوين ، فان العملية تبدأ تلقائيا في الظروف النفسية الزمنية التي

[1] – نفس المرجع ، ص 73

[2] – مالك بن نبي ، ص

تتفق مع " ظرف استثنائي " الذي يوافى مع ظهور المجتمع "[1]وهذا يعني ان المجتمع في طور التكوين يتم عبر الإطار العام على نحو تلقائي ، بينما في حالة الظروف العادية للمجتمع المنظم يتم عبر تربية منظمة . وفي الحالتين تنصب التربية الاجتماعية على جهاز الأفعال المنعكسة لدى الفرد فتكيفها بما يلاءم عملية الاندماج في شبكة العلاقات الاجتماعية ، حيث تتحدد العلاقة .

فبمجرد اعتناق العرب للإسلام كيّفوا حياتهم وفقاً لمبادئ الإسلام وكبتوا غرائزهم فنهضوا بسرعة، ولابد من أن نعيد حضارتنا من جديد باعتناقنا الإسلام بصورة تتكيف معه حياتنا فيصبح هو واقعنا.

أن نعي وندرك الخطر الملم بالعالم الإسلامي ليتولد لدينا حالة قلق تدفعنا نحو التغيير وإصلاح الواقع، حالة القلق هذه هي التي تبعث في الفرد "الفعالية" [2]

فكلما توجه تفكير الفرد نحو مشكلات مجتمعه، وشعر بضرورة إصلاح الأوضاع القائمة واهتم لذلك بشكل أصبح يقلقه ويوتّره، فإن ذلك هو بداية ال[3]طريق نحو الإصلاح والتغيير، فإن الشعور بالظلم مثلاً هو بداية الانفلات من الظلم، وهكذا.

2-3 :الحرية :

حرية الفرد في المجتمع هي مسألة اجتماعية تقتضي إدراجها ضمن عمليات الضبط وحسن التوزيع ، وهذا ما ذهب اليه مالك بن نبي ، الذي يرى أن كل الاديولوجيات الدينية والحديثة ، جاءت لترويض الطاقة الحيوية للإنسان وتضع حريته الفردية ومقتضياتها في

[1] – علي القرشي ، التغير الاجتماعي عند مالك بن نبي ، الزهراء للاعداد العربي ،ط1 ، 1989 ، ص 235

[2] – مالك بن نبي ، حديث في البناء الجديد ، المكتبة المصرية ، بيروت ، ص 58

[3] – نفس المرجع ، ص 59

حدود عمل المجتمع ومقتضياته ، والإخلال بهذا المبدأ معناه تعريض العملية البنائية للخطر " ، وعليه فان مهمة التربية في مرحلة إعادة البناء هي :

– ترسيخ مبدأ الحرية بطريقة تجعل الفرد يدرك أن حريته ونشاطه لا يتمان إلا ضمن حرية ونشاط الآخرين .

– ان حرية بلد ما انما تقوم بترسيخ فكرة الحرية " في الأفراد عن طريق تربية كل فرد بصورة تجعل سلوكه خاضعا لمراقبة وازعه الأخلاق ي الخاص .

– كما أن " على التربية الوطنية أن تفهم الجيل الفتي" ان الوطن لا يحقق استقلاله في مرحلة البناء إلا بقدر ما يضع من حدود لاستقلال أفراده ، غير أن هذه الحدود لا تحتمل إذا لم يكن لها اثمن المبررات : ان الخضوع أو التسليم في نصيب من حريته لا يتسنى ، في نظر الفرد ، إلا إذا كان الخضوع يتضمن معنى الواجب المقدس " .

ان تحقيق إدماج الفرد المجتمع في أي نشاط اجتماعي مشترك ، يقتضي من التربية الاجتماعية ان تنمي استعداد الفرد لمحو كل المعيقات التي تقف في طريق الإدماج ، عن طريق ما يسمى بالنقد الذاتي ، كما يقول بن نبي " تطهير نفساني يتكفل باندماج الفرد ومكانته أخلاقيا في قلب جماعة من المواطنين او المؤمنين " ولذا فتثقيف الفرد وتربيته على أسلوب النقد الذاتي من شانه ان يصفي السلوكيات ويزيح كثير من العقد و المعوقات ، التي تحول بين الفرد و الاندماج في العمل البنائي المشترك

3– تشكيل البنية الثقافية على مستوى المجتمع :

3–1: على المستوى الإجتماعي العام :

يرى بن نبي إن أول عمل يؤديه المجتمع عند ولادته هو بناء شبكة العلاقات الاجتماعية، ويضرب لذلك مثلاً بميلاد المجتمع الإسلامي في المدينة حيث آخى النبي

صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار،وفي رأي بن نبي أن المجتمع يتكون من ثلاثة مركبات هي"أشخاص" و "أفكار" و "أشياء"، وإذا كان المجتمع يتألف من "أشخاص" و "أفكار" و "أشياء" فإن غنى المجتمع يقاس مبدئياً بما فيه من أفكار لا من أشياء، ويضرب بن نبي على ذلك مثلاً ألمانيا المدمرة بعد الحرب العالمية الثانية حيث خسرت "أشياءها" بالكامل ولكنها استعادتها بسهولة بسبب غناها بالأفكار ، ولكن الأفكار لوحدها لا تكون فعالة عند تفكك شبكة العلاقات الاجتماعية، ويضرب بن نبي لذلك مثلاً الإسبان الذين هزموا مسلمي الأندلس، فهم كانوا أفقر بالأفكار من المسلمين بكثير ولكن شبكة علاقاتهم الاجتماعية كانت أقوى و أفضل،والمجتمع كما يرى بن نبي يتراوح في كثافة شبكة علاقاته الاجتماعية بين حدين: الحد الأول يكون فيه المجتمع في ذروة نموه ويكون كل فرد عنده مرتبطاً بمجموع أعضاء المجتمع، وأما الحد الثاني فهو حالة المجتمع المتفسخ الذي تحول إلى أفراد لا رابط بينهم.

3-1-1 :الواجب و الحق :

يقصد بالواجب هنا إعطاء أداء المسؤولية الاجتماعية أولوية على المطالبة بالحق. وإن تحقيق هذا الهدف التربوي أمر مطلوب في إطار التغيير الاجتماعي، ذلك أن تقديم الواجب على الحق مؤشر يدل على أن المجتمع يتجه نحو البناء والتقدم، إذ أن " المجتمع الذي يرتفع وينمو فإن ذلك يعني أن لديه رصيدا من الواجبات فائضا على الحقوق "[1] وبالتالي فإن الواجب من أهم المبادئ الأخلاق ية التي يقوم عليها التغيير والبناء. يتضمن الواجب بالنسبة لمالك بن نبي لفكرتي: التكليف الفردي والمسؤولية الجماعية، لذلك نجده يشدد على قيمة الواجب، كي تعلو على المطالبة بالحقوق، وذلك من خلال تنمية الشعور بالمسؤولية. إذ يرى أن " القيام بالأعمال وإن كانت بسيطة، والمدوامة عليها، تعود الإنسان على تحمل المسؤولية، وتنير له فكرة الواجب المتضمنة

[1] – مالك بن نبي ، تأملات ،مرجع سابق ، ص 31

لمعنى المصلحة التي ينعكس مردودها عليه "[1]،مما يجعله عنصرا فاعلا في عملية التغيير الاجتماعي. لذا فإن من أبرز مهام التربية في مرحلة إعادة البناء – كما يرى بن نبي–، أن تنمي الشعور بالواجب كقيمة أخلاقية على مختلف الأصعدة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وأن تعمل على محو العادات والأفكار التي من شأنها أن تتجه للمطالبة بالحق قبل الواجب، وأن ترسخ أولوية تقديم الواجب على نيل الحق.

3-1-2 : العمل الاجتماعي :

العمل الاجتماعي : ان الجو الاجتماعي الذي يتيح لمختلف الطاقات الدخول في عمل مشترك هو جو له معطيات من شأنها ان تعمل على المساهمة في تغيير الجو النفسي للافراد ، وتعدهم كادوات فعالة في عملية اعادة البناء ، وفي هذا يرى ابن نبي " ان العمل المشترك هو بمثابة المدرسة التي تكون الافراد في مواجهة الظروف الاستثنائية كالتخلف "2

والعمل عند مالك بن نبي " يتسع ليشمل الكثير من الأوجه النشاط العام ، كإزالة الأذى عن الطريق عمل ، إسداء النصح عن النظافة والجمال عمل ، وغرس شجرة هنا عمل ، واستغلال أوقات الفراغ عمل ، وهكذا ، فتوجيه العمل هو تأليف لكل هذه الجهود ، لتغيير وضع الإنسان وخلق بيئته الجديدة "3 فالعمل ثقافة فعالة لتغيير وضع الإنسان وخلق بيئة جديدة ، تصفي رواسب الماضي من اجل بناء المستقبل ، ان الارادة التي ينميها العمل المشترك تخلق الممارسة الفعالة بمعامل مضاعف لانجاز المهام ، حتى في حالة نقص " الإمكان المادي " فمالك يرى أن " العلاقة بين الإمكان الحضاري والإرادة

---

[1] – محمد بغداد باي ، التربية والحضارة ، بحث في مفهوم التربيةوطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي، مرجع سابق ، ص162

[2] – مالك بن نبي ، المسلم في عالم الاقتصاد ، مرجع سابق ، ص 22

[3] – نفس المرجع ، ص 99

الحضارية علاقة سببية تضع الإرادة في رتبة السبب بالنسبة للإمكان ، بحيث إذا عدنا لعالم الاقتصاد بهذه الاعتبارات ، فإننا لا نرى عالم الكميات والأرقام إلا في المرتبة التالية بعد الإرادة الحضارية " [1].

3-1-3: القابلية للاستعمار:

يستمد مالك بن نبي مفهوم القابلية للاستعمار من المناخ الثقافي والاجتماعي في مجتمع الانحطاط أو ما بعد التحضر، " كما يظهره جليا واقع المجتمعات المستعمرة، وكما يظهره واقع الفرد في نفسيته أو سلوكه المتصف بالسلبية والاستسلام. فمثلا بالنسبة للمجتمع الإسلامي هناك فرق بين ما هو عائد إلى الاستعمار، وما هو عائد إلى القابلية للاستعمار. فكون المسلم غير حائز على جميع الوسائل التي يريدها لتنمية شخصيته وتحقيق مواهبه، ذلك هو الاستعمار، وأما أن لا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يده من وسائل استخداما مؤثرا، وفي بذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته، حتى بالوسائل المتاحة، وأما أن لا يستخدم وقته فيستسلم، فتلك هي القابلية للاستعمار "[2]

وبتتبع هذه الظاهرة نجد أنها ترجع في جذورها إلى انكفاف القيم المقدسة الأصلية عن إشراط وتكييف الطاقة الحيوية للإنسان، وتسلل الأفكار المخذولة إلى السلوكات واندماجها فيها، وتحلل شبكة العلاقات الاجتماعية، وانتشار الفردانية، وفساد روابط العالم الثقافي، وانعدام الفعالية، وطغيان الشيء. كل هذه الأمور وتفاعلاتها السلبية عبر الأزمنة أصبحت تميز حقبة تاريخية في حياة المجتمع الإسلامي تمتد إلى وقتنا الحاضر، مخالفة لسابقتها من الحقب في هذا المجتمع، إنها حقبة مجتمع ما بعد الموحدين.وحتى المجتمعات الإسلامية المعاصرة التي استطاعت أن تلقي بالكيان الاستعماري خارج أراضيها، ما تزال امتدادا لأوضاع عصر ما بعد الموحدين، ذلك أن ظاهرة الاستعمار التي تعرضت لها

[1] – نفس المرجع ، ص 92

[2] – مالك بن نبي ، وجهة العالم الاسلامي ، مرجع سابق ، ص79

معظم المجتمعات الإسلامية لم تكن لتحدث لو لم تكن هناك قابلية للاستعمار في البنية الاجتماعية للمجتمع، وفي ذهنية إنسان ما بعد الموحدين وعقله. فها هو الاستعمار يعود إليها اليوم في شكله المقنع الجديد، ليتحكم في مصيرها إيديولوجيا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا، وقد يلجأ هذا الاستعمار إلى أن يعود بشكله السابق كما هو حادث اليوم في أفغانستان والعراق.

وبذلك يمكن القول بأنه ما دامت أوضاع هذه المجتمعات لم تتغير في جوهرها عما كانت عليه عقب سقوط دولة الموحدين، فإنها ما تزال في حكم القابلية للاستعمار. فهذه الاعتبارات هي التي انتهت بالباحثة سلوى بن جديد، في دراسة لها حول " مفهوم التبعية عند مالك بن نبي إلى اعتبار أن نفس المضامين التي كانت تعطي لمصطلح القابلية للاستعمار مدلوله ما زالت قائمة اليوم بهذه المجتمعات، وهو الأمر الذي جعلها تستبدل مصطلح "القابلية للاستعمار" بمصطلح "القابلية للتبعية "[1]فالقابلية للاستعمار" باعتبارها عاملا مكبحا لكل جهد اجتماعي، توضح عدم تأهيل الإنسان المسلم لتشييد حضارة، فهي تشكل أمامه سدا يمنعه من دخول التاريخ واندفاعه فيه من جديد، هذا التاريخ الذي أقصي منه منذ سقوط دولة الموحدين. إن هذه القابلية هي التي طبعت على نفسية الفرد اللافعالية، وحددت السمة العامة للسلوكات والثقافية والأفكار في المجتمع. إنها تشبه المرض الذي يعرض المجتمع إلى الاستعمار تماما كنقص المناعة الذي يعرض جسم الإنسان لأخبث الأمراض. فكل الإشارات البارزة التي تجعل المجتمع في وضعية سابقة على الاستعمار (استعماره) توجد هنا مجتمعة. وباختصار، فإن القابلية للاستعمار هي التي قدمت الشعوب المغلوبة على أمرها غنيمة سهلة للاستعمار.

1 – محمد بغداد باي ، التربية والحضارة ، بحث في مفهوم التربيةوطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي ، عالم الافكار ، الجزائر 2006 ، ص129

3-2: المستوى الاجتماعي النوعي :

3-2-1 : قضية المرأة :

تحت عنوان الإنسان كركن من أركان الحضارة ، توقف ابن نبي عند مشكلة المرأة كنموذج لثقافتنا الإسلامية ، فأشار إليها في إطار الحداثة والعصر الحديث . " المرأة باعتبارها جزءا من المجتمع وأساسه ، قد وجدت سبيلها في فاعلية المجتمع طبقا لثقافة إسلامية . لكن في عصرنا الحديث الأمر يتطلب إعادة تقويم لدورها بما يحفظ للمرأة دورها الأساسي في بنية الثقافة في أدائها الإسلامي " [1]

وفي ضوء ذلك لابد أن يكون دور المرأة في من مكونات وحدة المجتمع ، وذلك بان ننزع الدوافع الغريزية التي رسخت منطلقات عطلت قيمة المرأة باعتبارها جزا من مفهوم الفرد ، إذ هي و الرجل يمثلان وحدة متكاملة . بحيث لا تكون هناك مقارنة بين دور كل من المرأة و الرجل فهما قطبا الإنسانية فالآية القرآنية صريحة {يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها } النساء 1/4

لذا يجب ان نأخذ بعين الاعتبار حسب مالك بن نبي الأمور التالية :

1-ليس يجدينا ان نعقد نسبة بين المرأة والرجل ثم نخرج بنتائج كمية تشير إلى قيمة المرأة في المجتمع ، وإنها اكبر من قيمة الرجل أو اصغر .

2-إن الحديث حول النسبة المتبادلة بين المرأة والرجل ينطلق من الذين يتمسكون بوجوب خروج المرأة في زينة فاتنة توقظ الغرائز، يتساوون في مرجعية غرائزية مع الذين يتمسكون بإبعاد المرأة عن المجتمع ، يحول دون دورها ، فليس من المنطقي في الحفاظ عن الأخلاق بإبعاد المرأة عن المجتمع .

[1] – عمر كامل المسقاوي ، في صحبة مالك بن نبي مسار نحو البناء الجديد ، دار الفكر ، دمضق، ج 1، ص 461

3-ان دور الغريزة سوف ينتهي حينما تخرج المرأة إلى المجتمع في صورة يقبلها الخلق الاجتماعي ،بحيث لا يكون في لباسها أو تصرفاتها خطاب للغريزة في فتنمة المظهر . وهنا يعبر عن الاحتفاظ بالفتنة والجمال والعفاف والطهارة لمصلحة الرجل الذي يدافع عن الأنثى سواء كان أبا أو أخا أو زوجا ، وهنا يظهر هذا الاعتبار في محورية دور المرأة بدافع حاجة المجتمع ، ومنه يستخلص مالك بن نبي انه " ينبغي أن تطبع حركتنا النسائية بطابعنا لا بطابع ما يصنع في الخارج " والمقصود هنا التقليد الأعمى لكل ما هو غربي و حث المرأة على المحافظة على هويتها العربية والإسلامية مع مواكبة التطور والرقي .

3-2-2 : قضية اللباس :

يرى مالك أن اللباس يختلف بحسب المرحلة التاريخية للمجتمع ، فهو يكون متناسبا مع الحالة النفسية و الزمنية ، ومدى فاعلية المجتمع ، أو عدم فاعلية . فمن اللباس ما يشكل عائقا لفاعلية الشخص ، ومنه ما يكون مساعدا على تحقيقها .

الأولى : بالنسبة إلى المجتمع ، فهو احد العوامل المادية المؤثرة في التوازن الأخلاق ي لمجتمع ما .

الثانية : من الناحية النفسية بالنسبة إلى الفرد ، فلكل لباس روحه الخاصة ، فاللباس الرياضي غير لباس الشخص المسن ، بحيث يشعر اللابس منهما بأثرهما النفسي ، لذا فعند تحديد الثقافة تحديدا ايجابيا ، فلابد من مراعاة مشكلة اللباس بإدخالها ضمن الإطار التربوي للمجتمع ، وفي نطاق مبادئه .

4-تشكيل البنية الثقافية على مستوى الثقافة :

4-1: تحليل الخصائص المرضية للثقافة :

4-1-1 :اللفظية :

تعني الاستخدام الواسع للألفاظ الأدبية الرنانة والثرثرة في الحديث ، وذلك على حساب الدالة المعبرة التي تربط الفكرة التي تترجمها الألفاظ اللغوية بالواقع العملي وبالسلوك .

إن كل من يجيد فن الكلام ليس بالضرورة له باع في المنطق العملي من ذلك تتضح جليا الفجوة الكبيرة في الثقافة العربية ، حيث أصبحت اللغة أداة وهمية بتغيير مالك بن نبي وما نشهده في المجتمع خير دليل على ذلك بناء المجتمعات لا يكون بما يملكه في رصيد لغوي بل بالثقل الفكري الذي يناظر كثافة الواقع ووزنه .

كما أن تمجيد الزعماء من خلال وسائل الاتصال المرئية والمسموعة والمكتوبة منها ما هو إلا ولع وجد فيه المستعمر مجالا للاستثمار السياسي ، في ذلك أقر " كرومر " في مصر حرية الصحافة لأنه كان يدرك بأن كل الخطابات والأشعار تعمل على الترويج لبعض الأفكار الهدامة الغير مرتبطة بالواقع فتتحول إلى عادة ثقافية تفرغ المجتمع و تجهض قوى التغيير.[1]

هذا الواقع أوقف فاعلية الفكر العربي الأصل ، فاستبداد الألفاظ والصيغ من شأنه أن يخلع على أي تفسير للنهضة طابعها سطحيا من ذلك أكد " جاك بيرك " وهو يضيف القول عند العرب بأنه لا يساويه ما ينجز من عمل .

[1] – علي القريشي ، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي ، مرجع سابق ، ص 175 .

هذه الحقيقة التي تعاني منها الثقافة العربية جعلت الفكر العربي لا يعرف معنى الفاعلية ، فاستبداد الألفاظ والصيغ من شأنه أن يخلع على أي تفسير للنهضة طابعا سطحيا . فمثلا حين يتحدث أحد الشيوخ في محاضرة له عن الرحمة ويمضي نصف ساعة أو أكثر في سرد الأحاديث النبوية التي تؤكدها ، إنما يعكس ذلك في رأي مالك بن نبي " نقطة هامة في نفسية ما بعد الموحدين ، هي إنفاق المحاضرة والمستمع على الجمود وانعدام الفاعلية ،حتى لقد تحولت الحقائق الحية التي شكلت فيما مضى وجه الحضارة الإسلامية إلى حقائق خامدة مدفونة في جمل رائقة وعلم غزير ... ويبدوا أن المثل الأعلى قد ضل كما كان في عصر الانحطاط هو أن يبلغ المرء " بحر علم " يزدرد العلم ويفقد معنى دوره الاجتماعي ، وأي درس في التفسير يتيح لنا ملاحظة تفاهة ثقافتنا الراهنة التي استعبدتها الألفاظ ، فلم تعد تعبر عن اهتمام بالعمل ، بل عن مجرد شهوة إلى الكلام "[1]. لهذا لم يكن مخطئا " جاك بيرك" وهو يصف القول عند العرب بأنه لا يساويه ما ينجز من عمل.

إذن حين تفرغ الكلمات من مضامينها فلا تنبأ عن عمل ونشاط ، وتصير مجرد ألفاظ موصوفة ، يفتقد الكلام قدسيته ، ويفتقد علاقته الجدلية مع الفكر والعمل ، وتلك هي ميزة بارزة في الثقافة العربية الراهنة سواء في اتجاهاتها التقليدية أو الحديثة لدرجة ، تحولت الأفكار المكتسبة من كتب إلى مجرد كلمات مهيمنة تجهض مبادرات التي تختصر الطريق لبلوغ الحقيق[2]. مثال ذلك ـ كما يذكر بن نبي ـ ما نجده في عمليات التعليم ، كأن يحاضر حول التركيب الأدوية ويجهد نفسه في وصف أحد النباتات ولا يكلف يده لتمتد من نافذة وتقطف النبتة وهي حية نابضة ،إنما يضل يبحث عنها في الكتاب الذي بين يديه .

[1] – مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ،مرجع سابق ، ص53 .

[2] – علي القريشي ، مرجع سابق ، ص 176 .

إن داء اللفظية صار مكبرا بشكل أكثر سلبية عبر أدوات الإعلام والثقافة في العالم العربي اليوم ، حيث يلقن الناس مفاهيم وتعابير ، دون أن تتحول مدلولاتها إلى أنماط سلوكية .

4-1-2: الفخر والمديح :

فحسب رأي مالك بن نبي أن استخدام نزعة المديح ، وأدب الفخر والتمجيد ، كوسيلة للتغلب على مركب النقص الذي اعترانا إزاء سلطان الثقافة الغربية هو إن كان لا يخلو من فائدة في المحافظة على الشخصية ، فإن لمساوئه مخاطر " الآثار النفسية لأسلوب التكوين ، أي البيداجوجية "[1]إن الفخر والمديح هما عملية تسلية أو تحذير تعزل الفكر والضمير عن الشعور بالمتاعب الحقيقية كما تنطوي هذه النزعة في جوهرها النفسي على جبن في مواجهة النقص والقصور . حتى إن المحاولات الثقافية التقليدية والحديثة لم تتمكن من تعديل الاستعداد العقلي في هذه الناحية تعديلا جوهريا ، فصارت نزعة المديح تعبيرا عن الركود المشلولة ، فبذلك يكون المثقف العربي أول المتخاذلين في طريق النهضة حينما يلجأ إلى المديح والهيام بالكلمات ذات الصبغة الجمالية والوقع الموسيقي ، " وتلك وسيلة رشيقة مناسبة تخفي مواضيع النقص والاختلال ، فتجمل الأخطاء وتستر العجز بستار البلاغة المزعومة " [2]هذا المقياس سيقوض قابلية الفرد نحو الكمال ، ويخل بالحركة والتقدم لأنه من خلال هذه الطمأنينة " بأننا كاملون " ستتحول الحقيقة إلى شيء عدمي ، والفرق كبير بين الحقيقة من حيث كونها مفهوما نظريا يتسم بالإدراك المجرد ، وبينما كالحقيقة فاعلة مؤثرة تلهم الإنسان . فالحقيقة قد تصبح عاملا اجتماعيا مضرا حين لا تتماشى مع دوافع التطور والتغيير ، وبالتالي تصبح ذريعة للكساد الفردي و الاجتماعي ، وعاملا من عوامل الشلل . وهكذا تتحول نزعة الفخر إلى حالة من الكف

[1] – مالك بن نبي ، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ، مكتبة عمار ،القاهرة ، ص 106 .

[2] – مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ،مرجع سابق ، ص 60 .

عن التكامل الخلقي ، فتنتج بالتالي كفا عن تعديل شرائط الحياة ، أو عن التفكير في هذا التعديل، فيتجمد الفكر ، كما يتجمد فعل التغيير.

إن الثقافة الفعالة هي التي لا تكتفي بأمجاد الماضي فحسب إنما تقود الفرد والمجتمع نحو المستقبل ومتطلباته ، لأنها لو أكتفت بالماضي صارت ثقافة أثرية تعبر عن مرض اجتماعي لوسط لم تعد لديه الوسيلة أو الهم الذي يدفعه للتغلب على نواحي ضعفه ، فيلجأ كما يقرر بن نبي ـ إلى التعويض بالكلام عن الواقع المحس ، وإلى التعويض عن الحقيقة الموضوعية بالحقيقة الشخصية الذاتية . كل ذلك يأتي تبريرا للضعف والإفلاس والإنحطاط ، إذ أنه " من البديهي أننا حين نواجه مشكلة الرمد مثلا وهي من المشاكل التي تحدث كثير من الخسائر في العالم الإسلامي ، فليس مما يحل المشكلة أن نقول بأن طب الرمد كان من إختراع عالم مسلم من علماء القرن الثالث عشر هو " إبن محصن " ، فإن تعويضنا ـ اللاشعوري ـ بلوحة من لوحات الماضي عن واقع الحالي ، قد يجعل الحل مستحيلا من الجهة النفسية " .

ويعتقد بن نبي من جهة أخرى ، أن نزعة المديح هذه قد تنطوي على عقدة نفسية يطلق عليها " حالة إخلاص " وهي حالة تسيطر على المفكر حين يعمد تمويه طبيعة المشكلات ويدخل في معالجاته بعض التحريف اللاشعوري . مثال ذلك ما نجده عند مفكر له تأثير كبير في اتجاه العصر ـ يقصد به " سيد قطب " ـ حين أراد أن يضع خطة لمؤلف له اختار له بحق عنوان : " نحو مجتمع إسلامي متحضر " ، لكنه عاد وغير العنوان إلى :" نحو مجتمع إسلامي " ، مسقطا الكلمة الأخيرة ، " في هذه الحالة نرى أن العلاقة المعيبة تتدخل في صورة حرمان أدبي تفرض التعديل المذكور ، ولست أعتقد أن المفكر الكبير قد اعتبر الكلمة المقتطعة من العنوان الأول قد حرفت المشكلة في عقله فاختلقها وخدرتها بصورة ما في ضميره ، فإن العملية التي تتم في الإطار النفسي لها طبعا نتيجة في الإطار الأدبي ، إنها تقطع في الواقع المشكلة الأولية عن عنصرها

الجوهري ، وهو البحث عن شروط فلقد حضارة المجتمع الإسلامي ، فلقد استبعد المفكر المحترم إذن مشكلة العالم الإسلامي الحاسمة من بحثه ، حين إعتقد وحملنا على الاعتقاد بأن المجتمع الإسلامي هو على وجه التحديد " متمدين " وهكذا نراه وقد انجر مرغما تحت تأثير " حالة إخلاص " إلى موقف من المدح العقيم" .[1]

وعموما : إن واقعنا الثقافي زاخر بما يعكس نزعة المديح . ففي مؤتمر جزائري كان قد عقد بخصوص قضية قائمة ، استطاع المديح الذي أشبعته سيدة ألمانية في نفوس مؤتمرين ـ وهي توزع كتابها " شمس الله تشرق على الغرب " أن تحرف اهتماماتهم الذهنية ، وتصرفهم إلى أفكار لا يمكنها أن تساهم في حل القضية المطروحة ، وهكذا فاستمرار الاستعداد التكويني لتقبل نزعة المديح لا نجد أي تأثير حقيقي في التطور العقلية العامة ، وبالتالي لا تنتج الثقافة غير صواريخ أدبية مخدرة . وها نحن أولاء لا نكاد نقرأ مقالة أو نسمع خطابا أو حديثا إلا وتغمرنا عبارات الأمجاد وحضارات القرون الخوالي ، أو آلاف السنين حتى صارت هذه العبارات لوازم هي بمثابة القيد ، أو الاعتذار عن استمرار الواقع مزال بعيدا عن التغيير والتقدم ... لذا فإن التنبيه التربوي لهذه النزعة المرضية يكتسب قيمته إذا انطلق من مسلمة : أن " محرك التقدم ودليله إنما هو الحقيقة . والفخر إنما يكون دائما على حساب الحقيقة " [2]وبالتالي فإن تعديل الاستعداد إزاء هذه النزعة سيفوت على مدبري الصراع الفكري استغلالها فيما يعوق الحركة والتغيير .

[1] – علي القريشي ، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي ، مرجع سابق ، ص178 .

[2] – مالك بن نبي ، وجهة العالم الاسلامي ،مرجع سابق ، ص 18 .

4-1-3 :الجدلية والتبرير :

"يقصد بالجدل الكلام الكثير الذي لا يقود شيء ذو قيمة يحتاج إليه المجتمع لينهض ويقصد بالتبرير محاولة البحث المضني عن الحجج والبراهين لغرض إفحام الغير وإثبات حقائق إسلامية لا حاجة إليها غالبا ، والتي لا تفيد في تغيير الواقع المتردي في شيء "[1]

فالميل نحو الجدال في ثقافة عصر ما بعد الموحدين ، ظل تشهده الأوساط الأدبية والعملية ، بحيث لم يكن المتجادلون يبحثون عن حقائق ، وإنما عن براهين ، ولم يكن المجادل ليستمع إلى محدثه ، بل كان يغرقه في طوفان من الكلام ، وهذا ما يجده بن نبي ملموسا في حركات التثقيف التقليدية والحديثة التي شهدها العالم العربي ، والتي لا يجد في كثير منها إلا سعيا نحو مهرب من المجتمع بالوسائل التبريرية الملائمة للدفاع عن ذاته ، دون البحث في الشروط الموضوعية للتحول ، لدرجة صارت المشاكل معها توضع في حدود كمية، وهكذا فبدلا من أن تترجم الجهود الذهنية عن نفسها في صورة مذهب دقيق للنهضة ومنهاج منسجم كانت تنطلق في صورة شعلات دفاعية أو جدالية . ولقد ظلت هذه النزعة – كما يستطرد بن نبي سائدة في ثقافتنا بشكل عطل تحويل العمل الثقافي إلى عمل مخطط وتصميم يبلور مذهبا في التغيير الاجتماعي ، في حين أن إنتاجات ثقافة أخرى كأعمال **لوثر**و **كالفان** و **ديكارت** في الثقافة الغربية كانت قد وضعت أوربا في طريق التطور ، وكذلك إنتاجات **ماركس** و **إنجلز** و **لينين** لم تقتصر على مجرد نقد الرأسمالية والمجتمع الرأسمالي فحسب ، وإنما التفتت إلى نواقص الطبقة العاملة ، حتى إن **لينين** وضع كتابا في هذا الاتجاه أسماه ((أمراض الطفولة اليسارية)) كوسيلة للتحصين الثقافي ، والتوعية التي تحفظ حركة التغيير والبناء الماركسيين من المنزلق أو الانحراف وذلك ما لم تشهده ثقافتنا الراهنة [2]

[1] – عبد اللطيف عبادة ، صفحات مشرقة في فكر مالك بن نبي ، ط2 ، عالم الأفكار ، الجزائر ، ص 67 .

[2] – علي القرشي ، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي ، مرجع سابق ، ص 180 .

4-1-4: الشيئية والتكدس :

يرى مالك بن نبي أنه حينما تغيب الفكرة لصالح عالم الأشخاص ، فإن هذا الأخير يقع في اسر علم الأشياء ، فيتحول سلوك الفرد وتفكيره إلى النزعة الشيئية : " نظرا ما للشيء من قوة حضور وسحر في الذات ، لتعلقه باللذات والشهوات وسد الحاجات الملحة ، كما يعد عند الشعوب ذات البعد الواحد معيار القوة والحضارة والسلوك الاجتماعي عندما يطغى عليه الشيء ترى جميع الممارسات تحاول أن ترتكز عليه كمطلب وقاعدة وغاية ، والشيء بكل ما يحمله من أبعاد ، يعود سلبا أحيانا على الإنسان وخاصة إذا أصبح محور تفاعلات الذات " [1]. ويشبه بن نبي النزوع إلى الشيئية بمرحلة الطفولة عند الفرد " فالطفل لا يرى في العالم أفكارا ، ولكنه يرى أشياء فكومة من قطع الحلوى ، أثمن لديه بكثير من الجواهر ، وكل المجتمعات البشرية تمر بهذه المرحلة من الصبيانية "[2] . ولكن طفولة العالم الإسلامي من النوع المزمن ، فرغم أنه دخل إلى جانب الطفل الياباني إلى المدرسة الغربية ، غير أن هذا الأخير لما وجه سلوكه وفقا لعالم أفكاره تجاوز طفولته بسرعة واتخذ لنفسه مجلسا بين الكبار ، كما انعكست هذه النوعية الشيئية في ثقافتنا عند التعرض لحل بعض المشاكل ، إذ يتم التجاهل للخصائص النوعية ، وتعرض المشكلات في إطار كمي وتصاغ بعبارات كمية حتى إن تقييم كتاب لا يتم إلا بعدد صفحاته وليس على أساس موضوعه ، وقد يقع المؤلف نفسه أحيانا في هذا النمط من التقييم بل تنعكس هذه النزعة في التفكير الاقتصادي لدي بعضهم ممن لا يرى إتمام البناء الاقتصادي إلا عن طريق استثمار واستخدام رءوس الأموال الأجنبية أو بزيادة الضرائب . وكذلك الشأن بالنسبة للميدان الاجتماعي والسياسي ، إذ يشهد المجتمع حركية غير عادية اتجاه الحضارة الغربي من دون أن يشبع حاجاته ولا أن يتقدم خطوة لتكسير قيود تخلفه ،بل

[1] – مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص 160

[2] – مالك بن نبي ، فكرة كمونولث إسلامي ، تر : الطيب الشريف ، ط2 ، دار الفكر ، دمشق ، 1999 ، ص 19 .

استعبدته الأشياء ببريقها الخادع ، فالمتتبع لهذا الأمر يلاحظ كيف يكثر الكلام حول هذه الأشياء ويتم الترويج لها ، وكيف يتعلق بها الإنسان فيصبح همه الأكبر هو البحث عن كيفية اقتنائها ، ولا يختلف المعوز في ذلك عن الموسر الذي يرى وترى معه العامة أن في جمع وتكديس منتجات حضارة الغير متطورة دليل على مواكبته للعصر.

أصبحت الكمية والشيء هما المعيار الأساس الذي تصدر وفقه الأحكام ، فالمكانة الاجتماعية للفرد يستمدها من كمية الأشياء ولوسائل الموضوعة تحت تصرفه ، فالقصر ،والسيارة الفاخرة والبذلة الأنيقة وغيرها من الأشياء ، هي التي تضفي على الفرد قيمته و" الموظف يعتمد في تحديد رتبته في الترتيب الإداري بعدد الأجهزة التي يستعملها ، أو لا يستعملها ، ففي مكتب واحد لموظف كبير أحصيت أربع تلفونات أمامه ، وخمسة أجهزة تكييف من حوله ، وفي العاصمة العربية نفسها كان يسلم علي شاب مثقف وكان ابن شخصية ذات مقام معنوي رفيع ، لكنه توقف عن تحيتي منذ اليوم الذي رآني فيه على رصيف محطة نازلا من عربة الدرجة الثالثة "[1] .

4-1-5 : الرومانسية :

إن الرومانسية سمة مرضية تعاني منها ثقافة مجتمع ما بعد الموحدين، وكون الرومانسية مرض في نظره تعود إلى طغيان الخيال والخرافة وألوان البديع والبيان في الأعمال الفكرية، بما يقطع الصلة بالواقع المحسوس والمشكلات المطروحة على أرضه، وهو الأمر الذي يبطل دور الثقافة الإيجابي ويفقدها فاعليتها في تكييف الفرد وبناء المجتمع [2] ،ويرى أن انتشار النزعة الرومانسية في الثقافة العربية وسيطرتها عليها يعود

[1] – مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص 79 .

[2] – علي القريشي ، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي ، مرجع سابق ، ص 173 .

إلى عجز هذه الثقافة عن موجهة الواقع ومستحدثاته، فتلجأ إلى تغطية مواطن هذا العجز بأدوية من البلاغة [1]

إن الانغماس في محيط الطلاسم والخيال يجعل المجتمع – كما يقول مالك بن نبي– في حالة من الابتعاد عن الواقع ومشاكله ويدفعه إلى ممارسة الأسلوب الخرافي في مواجهة القضايا، ولعل تداولنا لقصة ألف ليلة وليلة عبر الأجيال، إنما هو انعكاس لحالة اللامبالاة والسلبية في جونا الخلقي والاجتماعي [2] كما أن شيوع هذه السمة السلبية في ثقافة هذا المجتمع يزيد في مضاعفة الداء وتعميقه، فينجم عن ذلك مخلفات سلبية تظهر آثارها على مستوى الفرد والمجتمع معا، إذ يسلب الوعي يضعف الشعور بالمسؤولية، وتشيع الحرفية والخيالية من دون أن يتم تقديم شيء ملموس لعملية التغيير والنهضة.

إذن فتلخيص الثقافة من نزعة الخيال ، معناه طرحها في مواجهة الواقع ومشاكله ، بعيدا عن الخرافية والقدرية والرومانسية ، واتباع السبل الواقعية والعلمية ، والصيغ العلمية المناسبة .

[1] – مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص 60 .

[2] – مالك بن نبي ، شرو ط النهضة ، مرجع سابق ، ص 32

خلاصة :

مفهوم الثقافة يختلف منهجا ومضمونا عن المفاهيم المختلفة التي وضعت للثقافة ، ذلك أنه لم ينطلق من تعريفها له بل من كيفية خلق واقعا ثقافيا فعالا لم يوجد بعد ، فالثقافة لا يمكن تحديدها من جانب واحد ولا النظر فيها من وجهة نظر واحدة ، أو برؤية تجزئية ، فلها جوانب أساسية ، وتطرقنا إلى بعض التصورات لتشكيل البنية الثقافية وذلك لإعادة البناء الاجتماعي تتكون من عدة مستويات منها المستوى الفردي والذي تضمن الأخلاق والتكيف والحرية أما المستوى الاجتماعي لديه نوعان العام الذي هو الواجب فوق الحق والعمل الاجتماعي ، القابلية للاستعماري.

وحسب تحليل مالك بن نبي للسمات المرضية وتشخيصه لها فإن سبب تدهور الثقافة العربية الإسلامية يعود إلى ظهور بعض الأمراض الاجتماعية التي تفكك المجتمعات وبالتالي الثقافات والحضارات تتمثل هذه السمات المرضية للثقافة التي أنتجتها مجتمع ما بعد الموحدين وهي اللفظية والمدح والفخر، الجدلية والتبرير ، الشيئية والتكديس ، الرومانسية .

وإجمالا فإن هذه السمات على الرغم من أنها تعبر عن واقع ثقافي اجتماعي عام شاخص، فقد فيه الفرد والمجتمع معا المقومات الأساسية لبناء الحضارة ، فانعكست صورته على هذا الواقع الاجتماعي المتخلف الذي يزداد تفاقما يوما بعد يوم ، إلا أن ذلك لا ينفي إمكانية التغيير عند مالك بن نبي ، فهو يمنح إنسان ما بعد الحضارة إمكانية التغيير والتحرك في اتجاه التاريخ من جديد دون توقف .

خاتمة

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة التي استعرضنا فيها مشكلة لها من الأهمية بمكان متمثلة في دور الثقافة في عملية البناء الحضاري ، لأن بناء الحضارة يجب ان يكون هما بشريا مشتركا ،يدخل في أولويات كل فرد وكل جماعة وكل مجتمع وكل امة ، تريد ان تكسب رهانات التدافع الحضاري ، وتشارك بجدية للاستفادة من منافع التداول الحضاري ، الحضارة ينبغي الا تستقطب اهتمامنا باعتبارها شروطا موضوعية وسننا مطردة قابلة للفهم والتحكم و الاستثمار في كل وقت ، لان التحكم في الشروط الموضوعية هو الذي يمنحنا القدرة على التجديد والإبداع من ناحية ، والقدرة على المواجهة والوقاية من ناحية أخرى ، فالحضارة سنن وقوانين منتظمة ، تفهم وتستثمر ، وليست منتجات حاجية أو كمالية مبعثرة تشترى وتستورد .

حاولنا من خلال هذه الدراسة أن نركز على أفكار مالك بن نبي حول مشكلة الثقافة وذلك بالتحليل والاستنباط من أجل أن نثري هذا الموضوع وفق إشكالية استفزتنا ، وهذا العمل المتواضع ليس من أجل الحلول فقط ولكن لإثرائه في ساحة البحث العلمي من أجل تضافر الجهود للوصول إلى الهدف المنشود .

وبناءا على نتائج هذه الدراسة توصلنا إلى مجموعة من الإستخلاصات :

- مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية ، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتقي بفكرته إلى الأحداث الإنسانية ، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها .
- أن مفهوم ابن نبي للثقافة كان جامع بين معطيات كلا من الإنسان والمجتمع حيث كان بذلك قد وفق بين المفهوم الماركسي الذي يرى أن الثقافة نتاج المجتمع وبين التعريف الغربي الذي يعرف الثقافة بأنها نتاج الإنسان .

- الثقافة في مهمتها التاريخية تقوم بالنسبة إلى الحضارة بوظيفة الدم بالنسبة للكائن الحي ، فالدم ينقل الكريات البيضاء والحمراء التي تصون الحيوية والتوازن ، وتكون جهاز مقاومته الذاتية .
- كل واقع اجتماعي في جذوره هو قيمة ثقافية معينة محققة في واقع الإنسان ، وفي الإطار الذي يحيطه ، فأي تفكير في مشكلة الحضارة هو أساسا تفكير في مشكلة الثقافة .
- الثقافة بما تتضمنه من فكرة دينية نظمت الملحمة الإنسانية في جميع أدوارها من لدن ادم ، لا يسوغ ان تعد علما يتعلمه الإنسان ، بل هي محيط يحيط به ، يتحرك داخله ، يغذي الحضارة في أحشائه ، فهي الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر ، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته ، تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه ، بما في ذلك الحداد والفنان والراعي والعالم والإمام وهكذا يتركب التاريخ .
- ان الازمة الحضارية هي باستمرار محصلة أزمة ثقافية ، وان نجاح أية حركة نهوض حضاري ترتبط بطبيعة مشروعها الثقافي ، كما يستخلص ذلك من مجمل رؤية مالك بن نبي لفلسفة ومنهج التغيير الاجتماعي و الحضاري .
- تحقيق النهضة والتقدم لا يتحقق بتكديس منتجات الحضارة الغربية بل إنتاجنا لأشيائنا الخاصة ، لأننا حين نستورد أشياءهم نستورد فقط هياكلها دون قيمتها الحضارية .
- إن توجيه العناصر الثقافية باستخدام العقيدة الإسلامية لتكييفها مع الواقع الاجتماعي الراهن ، يؤدي إلى حل مشكلات الثقافة وبالتالي تحقيق النهوض الحضاري :

– فتوجيه الأخلاق يعالج تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية ويمتن تماسكها ويزيد قوتها ، لان حسن الأخلاق ينتج تفاعلا ايجابيا بين الأفراد كما يغذي نفوسهم بالفعالية التي تحقق الحركية الفردية والاجتماعية ، وبالتالي فك الركود والجمود الذي عانت منه الحضارة الإسلامية لعقود من الزمن .

– وتوجيه الذوق الجمالي يحقق للمجتمع الحس الجمالي ، بتجميل وتوجيه سلوكيات الأفراد بما يخدم المجتمع ، كما انه مبدأ تربطه علاقة تكاملية مع المبدأ الأخلاقي .

– وتوجيه المنطق العملي ينتج مجتمعا متكافلا يستغل جهوده وطاقاته ووقته وترابه بأحسن طريقة تمكنه من الاستفادة مما يملك إلى أقصى الحدود .

– أما التوجيه الصناعي فيوفر للمجتمع والفرد طرائق فنية لإنجاح مهام تتعلق بحياة المجتمع ، فهي تحقق له الاكتفاء الذاتي واستخدام طاقته المتاحة ، بطريقة علمية منهجية ، تحقق الدرجة القصوى من الإتقان المهني والمهارة الفنية .

* ومن خلال نتائج هذه الدراسة ومن أجل بناء مجتمع متقدم لابد لنا من ثقافة هادفة وفعالة، نتطرق الى مجموعة من التوصيات نراها هامة جدا نذكر منها :

- ضرورة الاهتمام بالبيئة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وصياغة منهجها من خلال الاهتمام بالدراسات الاكادمية الهادفة .
- ضرورة الاهتمام بالإنسان والتراب والوقت .
- القيام بدراسة علمية حديثة تتوافق مع واقعنا المعاش تكشف فعلا مواطن المرض داخل المجتمع من أجل تحديد العلاج ، والصهر على علاجه .
- الاهتمام بالفرد في البناء الاجتماعي باعتباره وحدة أساسية في البناء من خلال دوره ووظيفته .
- الحفاظ على هويتنا الثقافية وفق التعايش مع الثقافات الأخرى في هذا الانفتاح الكبير في ظل العولمة مع الأخذ بعين الاعتبار مراعاة ما يخدمنا نحن كعرب ومسلمون .
- التخلص من معامل القابلية للاستعمار

قائمة المراجع

قائمة المصادر والمراجع :

المصادر :

1_ القرآن الكريم

2_ الحديث الشريف

3_ مالك بن نبي ، ميلاد المجتمع ، عبد الصابور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 2012 .

4_ مالك بن نبي ،آفاق جزائرية ، ترجمة : الطيب شريف ، مكتبة النهضة الجزائرية ،(ب س) الجزائر .

5_ مالك بن نبي ، القضايا الكبرى ، دار الفكر ، دمشق ، 2000.

6_ مالك بن نبي ، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ، مكتبة عمار ،القاهرة

7-مالك بن نبي ،تأملات ، دار الفكر ، دمشق ، 1979.

8- مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ترجمة : عمر كامل المسقاوي ، دار الفكر ، بيروت ، 2013 .

9_ مالك بن نبي ، مجالس دمشق ، دار الفكر ،2005 .

10_ مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الوعي ، الجزائر ، 2013 .

11_ مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ترجمة : بسام بركة ، دار الفكر ، دمشق ، 1988 .

12_ مالك بن نبي ، من أجل التغيير ، دار الفكر ، دمشق ،2002 .

13_ مالك بن نبي ، حديث في البناء الجديد ، المكتبة المصرية ، بيروت ، (ب س).

14_ مالك بن نبي ، مذكرات شاهد القرن ، دار الوعي للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2013

15_ مالك بن نبي ، المسلم في عالم الاقتصاد ، دار الفكر ، دمشق ، 1987

16_ مالك بن نبي ، فكرة كمونولث إسلامي ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1999

قائمة المراجع :

1_ الطيب برغوث ، حركة تجديد الأمة على خط الاجتماعية، دار قرطبة للنشر والتوزيع ، المحمدية ، الجزائر ، 2004

2_دنيس كوش ، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، منير السعيداني ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 2007

3_ الشيباني عمر تومي ، مقدمة الفلسفة الإسلامية ،الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، س 1995

4_ معن زيادة ، معالم على طريق تحديث الفكر العربي ، سلسة عالم المعرفة ، العدد 115

5_ عبد الرحمن البزاز ، هذه قوميتنا ، دار العلم القاهرة ، 1976

6_ ت .س. إليوت ، ملاحظات نحو تعريف الثقافة ، شكري محمد عياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، 2001

7_ أحمد بن نعيمان ، هذه هي الثقافة ، شركة دار الأمة ، الجزائر

8_ علي القرشي ، التغير الاجتماعي عند مالك بن نبي ، الزهراء للاعداد العربي ، 1989

9_ عبد اللطيف عبادة ، صفحات مشرقة في فكر مالك بن نبي ، ط2 ، عالم الأفكار ، الجزائر_ عصام حداد ، قاموس المنبع الموسع ، دار صبح ، بيروت لبنان ، 2011

10_ لمجد الدين الفيروز أبادي ، قاموس المحيط ، ج 2، مكتب التراث في مؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان ، 2005

11_ ابن خلدون ، المقدمة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان . 2007

12_عمر كامل مسقاوي، وحدة الحضارة، دار الفكر ، دمشق ، 1988

13_ صبحي طه رشيد إبراهيم ، التربية الإسلامية وأساليب تدريسها ،عمان ، دار الأرقم للكتب ، 1983

14_ هنا غانم، فلسفة الحضارة ، مطبعة ابن خلدون، دمشق، 1982

15_مرسي لحرش ، إستراتيجية استئناف البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي ، المطبعة الجهوية قسنطينة ،الجزائر ، 2006

16_ رضوان السيد ، المسألة الثقافية في العالم العربي الإسلامي ، دار الفكر، دمشق، 2001

17_ ريموند وليامز ، الكلمات المفتاحية ، ترجمة نعيمان عثمان المركز الثقافي العربي، 2007

18_ ابن منظور ، لسان العرب ، ج 6 ، دار المعارف

19_ جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج1 ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، 1982

20 _ محمد بن بكر بن عبد القادر الرازي ، مختار الصحاح ، دار صادر ، بيروت.

21- عبد الحميد بن باديس ، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير والكلام الحكيم الخبير ، 1359 ه .

قائمة الأطروحات والمذكرات الجامعية :

1_ العابد ميهوب ، الفكر التربوي عند مالك بن نبي ، أطروحة دوكتوراه ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية ، جامعة بسكرة

2_كمال بن قوية ، الأخلاق وأهميتها في بناء الحضارة عند كل من مالك بن نبي وألبرت اشفيستر ، رسالة ماجستير كلية أصول الدين ، جامعة الجزائر ، المشرف عمار جيدل ،2002

3_ حسن موسى محمد العقبي ،مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة ،رسالة ماجستير ، كلية أصول الدين ،الجامعة الإسلامية ،غزة إشراف صالح حسين الرقيب ،2005م .

4_تونسي العقون ، الفكر التربوي عند مالك بن نبي وعلاقته بمشكلة التخلف في الجزائر ، مذكرة ماستر ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة زيان عاشور الجلفة ، 2015

5_ سيما راتب عدنان أبو رموز ، تربية الطفل في الإسلام ، ماجستير دراسات إسلامية

6_محمد يحياوي ، مشكلة المنهج في كتابات مالك بن نبي ، رسالة ماجستير ، قسم الفلسفة ، جامعة الجزائر ، 1991

قائمة المجلات :

1 - محمد شاويش ، مالك بن نبي وشروط النهضة ، مجلة التبيين ، العدد 19 .